الحيل الدفاعية لدى ابن بلقين (٤٦٩ ـ ٤٨٣ هـ / ١٠٧٧ ـ ١٠٩٠ م) في كتابه التبيان

ا.م. د عامر ممدوح خيرو
الجامعة العراقية / كلية الآداب

The Defensive Tricks of Ibn Balkeen (469-483 AH./ 1077-1090 AD)In His Book (The Identification)

Instructor Amer Mamdouh Kheiro(Ph.D.)
AL-Iraqia University / College of Arts

المستخلص

يحظى كتاب (التبيان) لعبد الله بن بلقين (٤٦٩ ـ ٤٨٣ هـ / ١٠٧٧ ـ ١٠٩٠ م) ، بمكانة مهمة بين المؤلفات التاريخية ، وذلك لكونه يمثل وثيقة فريدة كتبها شاهد عيان على مرحلة الفتنة والطوائف المهمة في تاريخ الأندلس ، وهي مذكرات بالغة الأهمية والأثر .

وهذا البحث يدور حول (الحيل الدفاعية لدى ابن بلقين) وفيه محاولة تأسيسية لتغطية مادة الكتاب بالاستفادة من مناهج علم النفس ، والربط بين أشكال الحيل الدفاعية التي أقرها المختصون في الطب النفسي ، وبين مدونات ابن بلقين في كتابه التبيان .

وقد تضمن المبحث الأول مدخلاً تعريفياً بالحيل الدفاعية ، وابن بلقين ، وكتاب التبيان ، فيما استفاض المبحث الثاني بالحديث عن نماذج منتقاة من كتاب التبيان ، والتي عبر فيها مواقفه تجاه الأحداث ، فيما توقفنا في المبحث الثالث عند صفات ابن بلقين بكونها مفتاح لفهم لجوئه لذلك للدفاع عن نفسه وسلوكياته .

وبدا واضحاً ان مقاصد ابن بلقين في تدوينه كانت موجهة في جزء كبير منها نحو تقديم تفسير مقنع للقارئ بخصوص دوره خلال الأحداث المتتابعة بدءاً من توليه الحكم وانتهاءً بخلعه من قبل المرابطين ونفيه إلى مدينة أغمات جنوب المغرب الأقصى .

الكلمات المفتاحية: التبيان، الحيل الدفاعية، ابن بلقين

Abstract

Abdullah Bin balkeen's book "The Identification" has a very prestigious status among historical works, for being a historical document written by an eyewitness of the sedation era, and the era of the most important sects in the history of Andalusia. Thus his memoir is of high effect and importance.

This research talks about (The Defensive Tricks of Ibn Balkeen), in which the book uses the methods of psychology and the connection between the types of the psychological methods adopted by experts of psychiatry, and the memoir of Ibn Balkeen in his book "The Identification."

The first part of the research contains the definition of: the defensive tricks, Ibn Balkeen, and his book "The Identification". Whereas the second part will include selected models from his book, where he justifies his views towards the events. While the third part talks about Ibn Balkeen's personal character to being the key to understand why he resorted to it in order to defend himself and his behavior.

It seemed obvious that the purposes of Ibn Balkeen's notations were addressed in a big part of it, to convincingly explain, his role in the consecutive events, to the readers. Starting from his takeover of rule, and ending with Al-Moravid throwing his rule and taking over, passing by his exile to Aghmat in the South of Morocco .

Keyword: The identification, Defensive Tricks and Ibn Balkeen

المبحث الأول

اطار تعريفي

يجدر بنا قبل ان نلج موضوع (الحيل الدفاعية لدى عبد الله بن بلقين في كتابة التبيان) أن نقدم لمحة بسيطة عن أطراف الموضوع الثلاثة ، من اجل توفير الأرضية المعرفية المطلوبة لتغطية فقرات البحث بشكل منهجي صحيح .

أولاً : الحيل الدفاعية وأشكالها

تعرّف حيل الدفاع النفسي Defense Mechanisms بأنها (وسائل وأساليب توافقية لا شعورية من جانب الفرد من وظيفتها تشويه ومسخ الحقيقة حتى يتخلص الفرد من حالة التوتر والقلق الناتجة عن الاحباطات والصراعات التي لم تحل والتي تهدد أمنه النفسي ، وهدفها وقاية الذات والدفاع عنها والاحتفاظ بالثقة في النفس واحترام الذات وتحقيق الراحة النفسية والأمن النفسي ، وتعتبر هذه الحيل بمثابة أسلحة دفاع نفسي تستخدمها الذات ضد الاحباط والصراع والتوتر والقلق) [١] .

كما إنها تمثل استجابة الفرد للتأزم أو الضغط النفسي .. يتغلب بها على الإحباط والصراع ، وهذه الوسائل عادة منظمة ومحددة إلى درجة جعلت البعض يطلق عليها اسم " الميكانزمات العقلية " لأنها لا تمثل أنواعاً من السلوك منعزلة بعضها عن بعض ، ولكنها تكشف عن الديناميكية التي تكونت منها المميزات الخاصة لشخصية معينة ، وهذه الوسائل تعمل بطريقة غير شعورية تصبح مع الوقت ضمن نمط الشخصية ، وتؤثر في سلوك الفرد وتميز أعماله ، وإذا اتسع مداها في التأثير واتخذت نموذجاً معيناً أصبحت مظهراً من مظاهر الاضطراب النفسي [٢].

وينظر للحيل الدفاعية بأنها (كل وسيلة يستخدمها المرء من أجل الحفاظ على سلامته البدنية ، وتأمين راحته العقلية والنفسية والجسمية ، وبغية تحقيق مآربه ورغباته ، لئلا يتهددها الإخفاق وتبوء بالفشل ، فهي سبيل الدفاع عن النفس) [٣] .

والظاهر من هذه التعاريف المخصصة للحيل الدفاعية ، انها سلوك لا شعورية يقدم عليه المرء ، مثلما إنها ترتبط بالظروف التي يعيشها الفرد (ولا سيما في جانبها السلبي) مما تنعكس على تصرفاته وتعاطيه مع الأحداث ، حتى تغدو لدى البعض جزءاً من سلوكه اليومي ، وتكوينه الشخصي ، هرباً من حالة الاخفاق ، او تخفيفاً من أجواء الضغط النفسي الذي يعيش .

وهكذا نرى أن الشخص يلجأ إلى الحيل الدفاعية في وقت محدد ، وظرف خاص ، و(دون أن يشعر لدى اخفاقه في إقامة توافق بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين بيئته الاجتماعية ، ويترتب على هذا الإخفاق قلق أو صراع ، ويضطر الفرد إلى تخفيف القلق بطرق شتى ، ويكون ذلك بالحيل الدفاعية (لأنها محاولة لدفع القلق) وهي عملية لا شعورية ولا توافقية) [٤] .

ولا يبعد هذا الخيار السلوكي عن حالة القلق والشعور بالذنب التي تتملك المرء ، ولذلك نجد أن أكثر الوسائل الدفاعية تهدف في أساسها إلى الحصول على الشعور بتقدير الذات ، وإلى إبعاد القلق والخوف [٥].

وتنقسم الحيل الدفاعية النفسية إلى (إلى أقسام منها :

- حيل الدفاع الانسحابية (أو الهروبية) : مثل الانسحاب والنكوص والتثبيت والتفكيك والتخيل والتبرير والإنكار والإلغاء والسلبية .
- حيل الدفاع العدوانية (أو الهجومية) : مثل العدوان والإسقاط والاحتواء .
- حيل الدفاع الإبدالية : مثل الابدال والازاحة والتحويل والاعلاء والتعويض والتقمص والتكوين العكسي والتعميم والرمزية والتقدير المثالي) [٦].

وهناك من ينظر إلى هذه الحيل على إنها (تنقسم إلى : نرجسية مثل الإنكار والإسقاط والتشويه ، وغير ناضجة مثل التقمص والنكوص ، وعصابية : مثل الكبت والعزل والإزاحة ، وناضجة مثل الغيرية والتسامي والمرح) [٧] .

ويمكن ان نذكر على سبيل المثال ، عدة حيل دفاعية ، ومنها :

١. **التعميم Generalization** : و (هو الحيلة التي يعمم فيها الإنسان خبرته من تجربة سيئة على سائر التجارب المشابهة أو القريبة منها ، وهو حيلة لخفض التوتر تحاول أن تجنب الإنسان الآلام التي عاناها من تجربته الأولى باجتناب كل المؤثرات المشابهة لها ..) [٨] ، وذلك من خلال (هو تعميم تجربة أو خبرة معينة على سائر التجارب والخبرات المشابهة أو القريبة منها) [٩].

٢. **التعويض Compeusation** ، ويعد (حيلة دفاعية يلجأ إليها الفرد عندما يعاني بعض مشاعر النقص والقصور والحرمان في إحدى النواحي الحياتية ، وذلك من أجل التغلب على الشعور بالدونية والوصول بالذات إلى الشعور بالتقدير وتخفيف درجة القلق .. فالتعويض هو محاولة الفرد النجاح في ميدان لتعويض فشله أو عجزه الحقيقي أو المتخيل في ميدان آخر مما أشعره بالنقص) [١٠] ، ولجوء الشخص إلى هذه الحيلة ، تندرج ضمن (محاولة الفرد النجاح في ميدان لتعويض اخفاقه أو عجزه (الحقيقي أو المتخيل) في ميدان آخر مما أشعره بالنقص ، أو الظهور بصفة مقبولة لتعويض وتغطية صفة غير مقبولة . مثال ذلك طفل يعاني من اضطراب الكلام يدفعه لتعويضه بأن يصبح فيما بعد خطيباً مفوهاً ..) [١١] .

٣. **الإسقاط Projcction** : (وهي العملية التي يسقط فيها الفرد ــ لا شعورياً ــ دوافعه ورغباته غير المقبولة على فرد آخر . وهو كصدى الصوت ، إذ يرى الفرد ما يكرهه في نفسه ممثلاً في غيره من الأفراد ... وكثيراً ما يكون الاسقاط نتيجة الشعور بالذنب فيحاول الفرد التخلص من هذا الشعور بإلقاء اللوم على الغير ..

ويتصور ان العالم من حوله يحاول إيذاءه والانتقام منه) [١٢] ، مثلما إن الفرد ينسب فيها (ما في نفسه من عيوب وصفات غير مرغوبة إلى غيره من الناس ويلصقها بهم (وبصورة مكبرة))[١٣].

٤. **التقمص Identification** : (وهو عكس الإسقاط .فبينما يتخلص الفرد في الاسقاط من الصفات المكروهة بإلصاقها بغيره ، فإن في التقمص يمتص الصفات المحببة إلى نفسه أو المكملة لشخصيته من فرد آخر ، وهو في هذا يشبع حاجته إلى تقدير الذات وتأكيدها ...) [١٤] ، (أي أن الفرد يتوحد أو يندمج في شخصية شخص آخر أو جماعة أخرى بها صفات مرغوبة لا توجد لدى الفرد . وهكذا نجد أن التقمص فيه تسليم ضمني بالنقص ، وأنه تكميل للنقص ، والتقمص يختلف عن التقليد في أن التقمص لا شعوري بينما التقليد شعوري [١٥]، و مثال ذلك تقمص شخصيات الأبطال والنجوم والوالدين والأساتذة [١٦]، (وتخدم هذه العملية ـــــ التقمص أو التعرف ، التشبه ـــــ أغراضاً كثيرة لتحقيق رغبات غير قادر على تحقيقها ، فيرضاها في حياة الغير وكأنه قام بها ، وما نراه في حياتنا اليومية من اعجاب للأبطال والممثلين وبعض الشخصيات الأدبية أو الوطنية ما هي إلا عمليات لا واعية للتشبه بهم ، ولعلها من أهم العمليات النفسية التي تسهم في تكوين خصال الشخصية وبناء الكيان للمثل العليا والقيم السامية التي يتمناها المرء) [١٧] .

٥. **الكبت Reprcssion** : (وهو أكثر الوسائل الدفاعية شيوعاً ، ويهدف إلى التخلص من الصراع . وهو عبارة عن إبعاد الذكريات المؤلمة والحوادث المخزية والنزاعات غير المرغوب فيها والتي تسيء إلى تقدير الفرد لذاته ودفعها إلى اللاشعور ، حيث تبقى بعيدة فلا تثير القلق ... والوظيفة الأساسية للكبت هي وقاية الفرد أو بالأحرى وقاية حياته الشعورية مما يؤلمها أو يخفيها أو مما لا يتفق مع فكرة الفرد عن ذاته) [١٨] ، مثلما إنه يتمظهر بابعاد (الأفكار المؤلمة أو المخزية أو المخيفة أو الخطيرة المؤدية إلى القلق من حيز الشعور إلى حيز اللا شعور حتى تنسى ... والكبت يعتبر بمثابة دفن خبرات حية ، تحاول دائماً الخروج ثانية إلى

حيز الشعور .ويمكن أن تظهر المكبوتات مثلاً في الأحلام وزلات اللسان / والكبت يختلف عن القمع Suppression في أن القمع يتضمن كبج وضبط النفس شعورياً في ضوء المعايير الاجتماعية خشية الخزي والعار) [١٩] .

٦.**رد الفعل Rcaction Formation** : ويتخلص في اخفاء دافع أو نزعة غير مرغوب فيها وراء سلوك مغاير . أي عملية تمويه لا شعورية ترمي إلى حماية الذات . فمثلاً الشعور بالرفض والعداء قد يخفيه الشخص تحت ستار التأدب الزائد أو الزهو المنفر [٢٠] .

٧.**الانسحاب Withdrawal** : وهو الهروب والابتعاد عن عوائق إشباع الدوافع والحاجات وعن مصادر التوتر والقلق وعن مواقف الاحباط والصراع الشديد . والانسحاب سلوك سلبي مثال ذلك : الانسحاب الانفعالي والعزلة والوحدة لتجنب الإحباط في مجال التفاعل الاجتماعي [٢١] .

٨.**التبرير Rationalzation** : (وهو عبارة عن استجابة لدافع لا شعوري وتفسير هذه الاستجابة تفسيراً منطقياً ومقبولاً ، بمعنى أنه محاولة اقناع " الذات " بأن السلوك مقصود ومدبر . فهو عملية خداع ترمي إلى الحصول على احترام الذات وإبعاد الشعور بالذنب . ومن امثلته تبرير السلوك العدواني الناتج عن نزعة عدوانية لا شعورية نحو الآخرين على أنه دفاع عن دين او عقيدة ، فبينما يدرك الفرد عمله العدواني إلا أنه لا يفسره على أساس نزعات عدوانية لا شعورية وإنما يرجعه إلى شيء مقبول اجتماعياً) [٢٢] ، وهو (تفسير السلوك الفاشل أو الخاطئ وتعليله بأسباب منطقية معقولة وأعذار مقبولة شخصياً أو اجتماعياً) [٢٣] ، ويلاحظ أن التبرير يختلف عن الكذب في أن التبرير لا شعوري يخدع به الفرد نفسه بينما الكذب شعوري يخدع به الآخرين ، وكذلك الفرد قد يبالغ في تقدير قيمة سلوكه أو سماته ومن الناس من يرون التواكل توكلاً والتبذير كرماً والبخل حرصاً والقسوة حزماً والفوضى حرية والعنوسة استقلالاً والفقر حشمة .. الخ [٢٤].

ويقصد الفرد من وراء مثل هذا السلوك :

١. الدفاع عن الذات والحفاظ على احترامها .

٢. التخفيف من حدة الإحباط بالنسبة إلى الأهداف التي تعذر تحقيقها [٢٥].

وعند التبرير تسمع كلمات مثل " بسبب المجتمع ، العالم ، التربية ، أصدقاء السوء .. الخ " فالتبرير حيلة دفاعية نعمد إليها كلنا ألا الأطفال وحدهم [٢٦].

ولا تقتصر الحيل الدفاعية على ما تقدم ، وإنما تشمل كذلك أشكالاً أخرى ، منها النكوص وتذكر الماضي المليء بالأمان ، وذلك لعلاقة النكوص القوية بالحاجة إلى الأمان [٢٧] ، ومنها التجاهل أو الانكار ، و الرفض والسلبية ، واحلام اليقظة ، الاعلاء (التسامي) ، والاحتواء ، والعدوان ، والتحويل ، والانكار ، والالغاء (الإبطال) ، والرمزية ، والتقدير المثالي ، والخيال ، والنسيان [٢٨].

***

ثانياً : الأمير عبد الله بن بلقين (٤٦٩ ـــ ٤٨٣ هـ / ١٠٧٧ ـ ١٠٩٠ م) [٢٩]

هو عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي ، آخر ملوك غرناطة في عصر الطوائف بالأندلس (٤٠٠ ـ ٤٨٤ هـ / ١٠٠٩ ـ ١٠٩١ م) ، ولد في سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٦ م ، وعين عند وفاة أبيه بلقين سيف الدولة عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م كولي عهد لجده الأمير باديس بن

حبوس، ثم أعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٧ م ، بينما أصبح أخوه تميم المعز مستقلا في مالقة .

وعاش عبد الله بن بلقين مثل بقية زعماء الطوائف هذه السنوات في ظل نزاعات متواصلة ، وارتباط مع ملك قشتالة الفونسو السادس ودفع الجزية له تحت ضغط نزاعه الرئيسي مع مملكة أشبيلية وزعيمها المعتمد بن عباد [٣٠]، كما شارك في معركة الزلاقة وحصار حصن لييط عند دخول المرابطين إلى الأندلس كما سنرى ، وانتهى به الأمر منفياً في مدينة أغمات بعد خلعه من قبل يوسف بن تاشفين عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م ، فقام باعتقاله ونفيه مع أخيه تميم أمير مالقة وبرفقتهما المعتمد بن عباد ملك اشبيلية إلى مدينة أغمات جنوب المغرب الأقصى [٣١] .

***

ثالثاً : كتاب التبيان

عكف الأمير عبد الله بن بلقين خلال سنوات نفيه ، على كتابة مذكراته الخاصة التي يصور فيها الأحداث التي سبقت عزله عن إمارته متضمنة معلومات تاريخية عن عصر ملوك الطوائف بصفة عامة.

وكتاب التبيان هو عبارة عن مذكرات كتبها أمير غرناطة بعد خلعه بحوالي أربع سنوات في الفترة الواقعة بين منتصف سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ونهاية سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م في منفاه بمدينة أغمات ، وتعرض فيها إلى تاريخ إمارة غرناطة خلال حقبة تاريخية محددة وهي فترة حكم دولة بني زيري.

وقد ابتدأ كتابه بالحث على أهمية التمرس بالتجربة السياسية في ممارسة مهنة الحكم، كما ينص على قواعد التأليف ومناهج البحث في التاريخ، من استخدام العقل والقياس، ومقارنة الماضي بالحاضر، ثم ينتقل بعد ذلك إلى استعراض حكم أسرته

بني زيري متحدثا عن قدومهم إلى الأندلس واستقرارهم في البيرة وغرناطة [٣٢] ، ثم قيام إمارتهم بعد ضعف الخلافة الأموية ثم سقوطها ، مستعرضاً لحكم كل أمير بالتفصيل ولأهم الأحداث في عصره، وحوادث عصره، وحروبه وسير ملوك الطوائف المعاصرين ومقدم المرابطين وتدخلهم في شؤون الأندلس، ثم يتناول حوادث حياته الشخصية، حتى انتهاء ملكه واستسلامه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين [٣٣].

ويعد الكتاب بمثابة وثيقة تاريخية بالغة الأهمية ، وتحظى بأهمية بالغة في ميدان الدراسات الأندلسية عامة ، وحقبة الفتنة والطوائف منها خاصة ، لما تضمنها من معلومات وتحليلات وانطباعات بدت شخصية بشكل كبير ، لكنها مهمة في تبيان الجو العام الذي عاشته الأندلس وقتها ، وهو ما ثبته عدد من الدارسين بهذا الخصوص مما يمنحه مكانة مهمة تستحق الوقوف عندها بحثاً ومتابعة .

فيثبت ليفي بروفنسال (ان هذه الترجمة الشخصية تكوّن أعظم مجموعة وثائق نلمكها عن تأريخ ملوك الطوائف) و (هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول) و (دليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداءً من العصر الذي تنتهي فيه مؤلفات ابن حيان) [٣٤] .

كما (إن كتاب التبيان .. هو المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن أحداث العشرين سنة الأخيرة من فترة ملوك الطوائف ... ومما يزيد من أهمية الكتاب إنه ليس رواية شاهد عيان معاصر للأحداث وحسب ، بل إن صاحبه امير بربري ، ولذلك فإنه يعطينا وجهة نظر غيره من ملوك الطوائف فضلاً عن رأيه الخاص بشأن الأحداث التي وصفها وفسرها لنا مؤرخون أندلسيون معادون لملوك الطوائف عامة وللبربر على وجه الخصوص) [٣٥] .

والناظر في كتاب التبيان ومحتواه ، يجد أنه (يعتبر وثيقة تاريخية هامة تعكس جوانب من الأحوال السياسية والاجتماعية في الدولة الإسلامية في الأندلس في عهد

ملوك الطوائف ، كما وأنه مرآة صادقة نستطيع من خلالها التعرف على عدد من الصفات المميزة لشخصية الأمير عبد الله) [٣٦] ، ليس هذا فحسب وإنما التفرد بكونه حلل (البعد النفسي عند ملوك الطوائف مكتشفاً دوافع قراراتهم وأعمالهم ، ومما هو أهم من كل هذا ، ان عبد الله يعبر عن أفكاره ودوافعه الداخلية من خلال عدد من القرارات الهامة التي اتخذها ، كما تطرق لدوافع الشخصيات التي اصطدم أو تفاوض معها ... فيعكس لنا عقلية الفئات الأندلسية المختلفة الأمر الذي لم يفعل أي كاتب غيره) [٣٧]

لقد تضمن كتاب التبيان سرداً تاريخياً ممزوجاً بجوانب الذاتية ، والشخصية ، والجمع بين التوثيق التاريخي (غير المتخصص إن صح الوصف) مع طابع المذكرات اليومية ، واستجلاء خبايا النفس الداخلية عبر حواراتها بشأن الأحداث [٣٨] ، مما منحه طابعاً خاصاً بين المؤلفات الأندلسية وأهمية تاريخية بالغة .

المبحث الثاني

صور من الحيل الدفاعية عند ابن بلقين

سلط الأمير عبد الله بن بلقين في كتابه التبيان الضوء على تطور الأحداث السياسية في عصره وحتى انتهائها بخلعه ونفيه إلى أغمات ، عاكساً الصورة التي تكونت عن زعماء الطوائف ، والذين تعاونوا مع الممالك الاسبانية وانشغلوا بالنزاعات مع اخوانهم ، وفرطوا بشكل مؤلم بالكثير من مدن الأندلس وحواضرها [٣٩].

ومن الملفت أن نجده يبتدئ كتابه وينهيه بإشارة دقيقة لها مدلولاتها المهمة ، فيقول : (الثناء الحسن لا يقع على الدولة إلا في مدتها ، وأيام سعادتها ولو كانت ظالمة ، ولا يقع فيها الذم إلا بعد توليها ، ولو كانت عادلة . والناس مع من سبق إلا من نظر بعين العدل لا بعين الهوى ، وقليل ما هم) [٤٠] ، أما نهاية كتابه فهو ما

سنشير إليه في ختام هذا المبحث ، وهو ما يثير التساؤل حول تثبيت هذه الملاحظة وما يتوقع من ان تكون باباً لطرح أفكاره وتعليلاته بخصوص الأحداث .

لقد حاول ابن بلقين تبرير (موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدم مملكته) [٤١] ، وبالتالي كان اختيار الأحداث وترك غيرها ، ومديات تغطيتها ، والتفسيرات التي قدمها لها ، والمنحى العام الذي نحاه في كتابه ، كل تلك الجوانب كانت على ما يبدو مقصودة لهدف محدد ، وهو الخروج بصورة ايجابية عن دوره ، او التماس العذر له .

ولا ننسى ان تدوين التبيان ــ كما أسلفنا ــ كان في فترة نفيه ، وانتهاء جلبة الأحداث التي كان هو احد المشاركين في صياغتها ، مع أنه ثبت منهجه بالقول : (وإذ اتينا على ذكر جمل من أحوال الأندلس الحادثة فيها ، المشهور خبرها حسبما استفاض ، تركنا وصف الاختلافات ، إذ يوجد الحق في طرف واحد ، ولم يكن منها ما طولع بالمشاهدة ولا بالمعاينة أكثر من إشاعة خبر ، ذكرنا منه ما ينقاس في العقل ، وحذفنا منه الإكثار والمشتبهات . وإنه ، متى أتينا على ذكر خبر حادث في دولتنا مما حاولناه أو شاهدناه ، اطنبنا في وصفه ، وقتلناه علماً إلى آخره ، وأخبرنا بسره من جهره ، وبأرق الأسباب فيه... ولهذا ما اختصرنا من الكائنات المشهورة بالأندلس كثيراً من الأخبار عنها ، واقتصرنا على الاطناب فيما يخصنا منها ، مما حاولناه أو رأيناه عيانا .والحقيقة من الخبر عون كبير على ما يروم الإنسان من صفة في منظوم أو منثور ، كالمادح أو الذام ، فإنه إذا وجد إلى المقال سبيلاً ، أطنب وأبلغ ، وإن كانت بعض زيادة ، فإنها لا تمكن إلا في الأغلب والأكثر ، ويكون في ذكر الأمرين مصدقاً لمعرفة الناس به ، ولأن كتابنا لم يكن مبنياً إلا على وصف مملكتنا خاصة ، " والحديث ذو شجون " ، فلا بد من ذكر جمل من غيرها عند الحاجة إلى وصفه أو ضرب مثل به ، تزيينا للكلام وإقامة للبرهان ودوراناً على الحقيقة) [٤٢] ، فإن التدقيق في ثنايا مدوناته يوقفنا على منهج مهم اتبعه ابن بلقين في عرض مادته .

وسنحاول في هذا المبحث متابعة عدة نماذج لهذا الاتجاه في التدوين ، مؤجلين ارتباط كلامه بصفاته الشخصية ومناقشة آراءه إلى المبحث الثالث .

ولو أخذنا عزل وزيره سماجة على سبيل المثال ، نجد ان ابن بلقين ربط قراره ــ بعد كل ما قدمه له الوزير من اعانته وتدبير شؤون غرناطة أول حكمه ــ بعدم ارتياح الوزير من اجراءاته لتثبيت أسس حكمه ومتابعة شؤون رعيته فهو يقول (وإنه لما تهدنت لنا الأحوال وقر ملكنا قراره بمصالحة المعتمد [٤٣] ، ومعاقدة الرومي على المهادنة ، وتوطين النفس على ما نعطيه في العام ، انصرف نظرنا إلى إصلاح أمر بلدنا ، والفتش على رعيتنا ، والكشف على العمال إن كانوا عادلين أو ظالمين ، ولما شعر بذلك خدمتنا ومن كان له مذهب في نصيحتنا ، انتدب جميعهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على ما خفي عنّا أزمان تلك الفتنة ، فكنّا لا نقبل من أحدهم على الآخر إلا بعد روية وهجوم على الحقيقة ، حذراً أن يكون مقال أحدهم حسداً للآخر ، أو طلبا لا يتقي الله فيه ، وكان سِماجة ، وزير دولتنا المتقدم ذكره ، قد شعر بذلك وأحسه منّا ، فاغتم للأمر ، وعمل في نفسه ، وشكاه إلى إخوانه ، وكان فيما قال لهم : إنما كنا نطمع بالتحكم على هذا الرئيس والتمكن من دولته مدة أيام صبوته ، يعني صغر سنه . وأما الآن ، فلسنا نجد سبيلاً إلى رده عن دولته ، لا بفئة تحمينا ، ولا بصغر سن نجد به السبيل إلى صرفه عند العامة وتسفيه رأيه ، لا سيما إذ كان رأيه النظر من دولته والبحث عنها . فقيل له : لست تجد سبيلاً إلى أكثر من المداراة له ، والإتيان لمرغوبه ، وقلة الخلاف عليه لئلا يتمكن عدوك منه ، ويشتفي حاسدك عليك .فهو ، إذا وجد منك الذي يرغب ، لم يلبث أن يمل النظر والخدمة ويفوض الأمر إليك ! ثم أنت بالخيار عند غفلته وإقباله على راحته ! عليك بإشغاله بالنساء ، وعجل له ابتباع الرقيق ! ولسنا نأمن أن يكون يشنأك من تحجيرك هذه الشهوات عليه ، فإنه نظن به ما يظن بمن كان في سنه.

ففعل ذلك ، وكانت هذه الفترة التي دبرها من سعادتنا وتمكيننا من آمالنا في الذي ذهبنا إليه من الاستبداد بملكنا ، فإنه شبك علينا المعاقل ببني عمه ، وأشدها علينا مدينة المنكب ، فجعل يطلق لنا العنان في كل ما نريده ، واشترى الرقيق ، وجعلنا نخرج الى النزاهة في البلاد ، يرى بذلك الانصاف والتأتي ، إذ كان الرجل متثبتاً ، خائفاً من سوء العاقبة ، مع أنه كان خائفاً من قبل ذلك من أجل كتب استعملها على ألسنتنا أقوام من اعدائه إلى طائفة من صنهاجة يؤمرون فيه بقتله ، ونحن براء منها ، فظفر بالكتب ، وأنزل بنا التهمة ، وامر بقتل اولئك المسمين في الكتب ، وغيرهم ممن اتهم من كرائم باديس رحمه الله. وكانت تلك المعاني مقدمات تغازله لعزلته . فلما كانت وجهتنا إلى وادي آش عن اختياره ، وقد كنت علمت معتقده في ذلك بالقياس والميز مع بعض الأخبار ، قلت في نفسي : هذا رجل قد اعتاد الأمر والنهي ، ورأى من يقظتنا للدولة ما لم يكن يرديه ، وليس فعله هذا بهواه ، وكل فعل يضطر فيه الإنسان اليه لا يؤمن خلافه ، والرجعة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرة ، أكن كمن نبه على امر وحذر من نفسه ، ثم أوبق نفسه في المضرات . وإن أغضبنا هذه المرة وعاد إلى ما كان ، ثم نرى منه خلافاً ، لم نقدر عليه بشيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإن هذا الأمر منّا جاءه فجأة لم نحتسبه ولا ظن به ، والفرص تمر مر السحاب فما دمنا نحن بالخيار عليه ، لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا) [٤٤] ! ، (فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا ابلاغ في عقوبة ، استمالة لأنفس الناس ، وبسطاً لأموالهم ، وخرج بجميع أثاثه وخدمه ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشيعاً إلى المرية ، فكان المعتصم يكرمه من أجلنا ، ولا ييأس أن نصرفه إلى منزلته ، فيقدم ذلك الإكرام عنده . وخرجت امرأته بحلي كثير من الجوهر ، حاشى ما خفى عنا من المال ، وإنما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضة أول ولايتنا وقت فتح بيت المال ، ولم نتحقق ما اكتسب منها مدة خدمته لنا ، ولا بحثنا على ذلك) [٤٥] .

والتأمل في هذا النص يوقفنا على أن ابن بلقين كان ينظر إلى وجود دور سلبي لوزيره سماجه ، وأنه انتبه له ، وان عزله يأتي ضمن خطته لإدارة الدولة وصلاح الرعية ، ويتجاوز الحديث عن وجود كتب زورت على لسانه كما ذكر هو وعدم تسوية هذا الأمر معه .

واستجماع الآراء حول هذا الموضوع ، نجد ان ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ، يقدم صورة مغايرة لما ذكره ابن بلقين ، ويربطه برغبة الأخير بالاستبداد بالحكم والتسلط من وجود سماجه وهو الذي ساند اول حكمه ، فيقول : (وكان سماجة حازماً ، شديد السطوة ، مرهوب العقاب ، جواداً ، شجاعاً ، فاضلاً ... ولم يزل سماجة يدبر أمر عبد الله ، والسعود تساعده ، والأمر ينوء به ساعده ، إلى أن بلغ عبد الله ، وأراد الاستبداد بحاله ، وضاق بسماجة ، فرحل عنه إلى كنف جارهم صاحب المرية ، وقد مهد لنفسه عنده ، فاستقر لديه بحال ثروة وغناء ، وأقام عنده إلى آخر عمره) [٤٦] .

(ويبدو أن الأمير متحيز في ما يقوله عن الوزير سماجة الذي يصفه ابن الخطيب بالشجاعة والكفاءة ، واليه يرجع الفضل الأكبر في احتفاظ مملكة غرناطة باستقلالها وسلامة أراضيها حينما تكالبت عليها اطماع ملوك الطوائف المجاورين لها بعد وفاة باديس ، إلا ان عبد الله يتهم سماجة بالاستبداد ، وبمحاولة إلهاء الأمير الشاب وإبعاده عن أية سلطة حقيقية في غرناطة . إن الأمير عبد الله في تحامله على وزيره السابق وغضه من شأنه إنما يسعى لتبرير القرار الذي اتخذه بعزله وبتوليه وحده تصريف شؤون غرناطة) [٤٧].

ولو انتقلنا إلى جانب آخر مهم ، نجد أن ابن بلقين يدرك تماماً طبيعة عصر الفتنة والطوائف ، ويعلم يقيناً السلبيات التي ارتكبت ، ويورد القول الآتي دون أن يستثني نفسه القول : (فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كل قائد بمدينته ، وتحصن في حصنه بهد تقدمة النظر لنفسه ، واتخاذه العساكر ، وادخاره

الأموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد على الآخر ، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة ؟) [٤٨]

ومع ذلك عمد فيما بعد إلى تبرير كل سلبية ترتكب ، وكل سلوك متردي يقوم به ، معللاً في بعض الأحيان سياسته بوجود الخطر الخارجي الذي لا يمكن رده ، فيذكر بعد صلحه مع المتعمد : (فقرّت الأحوال قرارها ، وتهنى كل واحد منا بملكه ، إلا ما كان من سيف براني يعترض بلادنا من الروم ، فكان الرزء فيه واحداً والمشاركة سواء ، وإن كنا لا نقدر على ذلك بالإمداد بعضنا لبعض لضعف الحال ، فكنا نتشارك بالمداخلة وإعمال الرأي والتحذير من امرٍ عسى أن يكون قد خفي عن ألآخر وما أشبه ذلك) [٤٩] .

وهنا يمكن ان نسجل على النص الآتي :

١. يحاول ابن بلقين الإيهام بأن قلوب زعماء الطوائف كانت واحدة (فكان الرزء واحد والمشاركة سواء) بينما كان الواقع خلاف ذلك إلا في حالات محددة وربما نادرة .

٢. يركن إلى تناول الخطر الخارجي وهو حقيقة واقعة لا نكران لها ويربطه بالضعف الداخلي ، وإن مواجهة ذلك لا يمكن بسبب ذلك ، ولعل السؤال هنا ، ألا يعد هذا القول تناقضاً مع سلوك زعماء الطوائف أنفسهم ،

ولجؤهم المستمر إلى الإسبان ، واستلام الأموال والسلاح لتوسيع نفوذهم ، بل ومواجهة أحدهم للآخر ؟ .

كما يفصل في موضع آخر هذه الرؤية الواضحة التي دلت على معرفة بواقع الحال وادراك سوءه من جهة ، والنظرة المتوجسة من المرابطين من جهة أخرى ، فيقول : (وبقيت أحوالنا على أفضل ما يمكن ، وبلغنا من آمالنا غايتها ، إلى ان حدث أمر المرابطين ــ أعزهم الله ـــ . وكنا رأينا كلب النصراني على الجزيرة وأخذه طليطلة ، وقلة رفقه ، بعدما كان يقنع منا بالجزية ، وصار يروم أخذ القواعد ، وأن أخذه لطليطلة للضعف المتوالي عليها عاماً بعد عام ، وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد ، إذ كان مذهبه ألا ينازل معقلاً ، ولا يفسد أجناده على مدينة ، لبعد مرماها ومن فيها من مخالفي ملته ، وإنما كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام ، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التحدي ، إلى أن تضعف وتلقي بيدها كما فعلت . فوقع من ذلك في الأندلس رجة عظيمة ، وأشرب أهلها خوفاً وقطع رجاء من استيطانها . وجرت بين المعتمد والفونش [أي الفونسو السادس ملك قشتالة]مخالفات كثيرة ، وسأله أن يتخلى له معاقل كان الموت عنده أولى من إعطائها . فوجست نفسه منه بالجملة ، ورام كسره بطوائف المرابطين ، وضرب بعضهم ببعض للقدر الذي شاء الله) (٥٠) .

وتوقفنا النصوص المهمة المتتالية التي ثبتها ابن بلقين حول التفاوض مع الفونس والتعاون معه ، على جانب مهم من توجهات ابن بلقين ومحاولة تبرير العجز والضعف الذي كان عليه زعماء الطوائف عامة وهو خاصة ، فيقول :

(وأما الفونش لما تيقن هذه الفتن ، علم أن ذلك من اكبر سعادته وأعظم فرصة في طلب الأموال .فأرسل إلينا رسوله أول مداخلة نشأت بيننا وبينه ، فأتى باطرو

شولش . يطلب منا ضريبته فأبينا عليه ، واجتمع رأينا على أن لا نفعل ، وأن ضرر الفونش لا يخشى وغيرنا أمامنا ، نعني بذلك ابن ذي النون . ولم نقس أن أحداً يعاقده على مسلم .فانصرف عنّا بلا عمل ... وعند انصراف المعتمد عن وعساكر الروم ، عبينا عسكراً كثيراً ، ونهضنا إليه ، فلم نقدر فيه على شيء . وانقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المطالبين عليها مع الرومي . وندمنا على التفريط أولاً في معاقدته حسب ما سأل . وكان من أحسن شيء على السلاطين أخذ معقل بالسيف ، فإنه ، متى اعترض ، لم يستطع على دخوله لمنعته وما عد فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفذ ما فيه لقوة تأتيه ، فيقلع عنه إلا من كان أقوى . ولم نكن نحن إلا متكافئين في ذلك : متى ما أعطى أحدنا لعسكرٍ مالاً ، وأراد الآخر نقضه ، أربى عليه وأراحه منه) [٥١] .

وهنا يمكن لنا التساؤل ، عن وجود مدى من التقاطع بين الصورة التي يرسمها ابن بلقين ، وبين الواقع ، فهو في أول مواجهة مع المعتمد بن عباد وصل لمرحلة الندم على عدم معاقدة الفونسو ، لأنه أدرك ان ملكه في خطر .

ويختزل مشكلته مع المعتمد والاسبان بشخص ابن عمار الذي يراه هو سبب إفساد العلاقة مع الطرفين ، وعدم القدرة على التوصل إلى مصالحة ، فيقول : (وبقي ابن عمار مرتهناً بما جعل على نفسه للنصراني من كراء بليلش في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يقطعها له ، ويعده بها . وأدخل سلطانه من ذلك في تشغيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله يخلد إلى راحة لكي يحتاج إليه في تلك الفتنة ، لا يقر عن ادخل ضرر على المسلمين . ومتى ما كان المعتمد يسعى في تهدين الأمر ونروم معه الصلح ، او تنشأ مهادنة ، لا ينام في نقضها وإشعال نار الفتنة. فعاد ثانية إلى النصراني الفونش ، وزين له امر غرناطة ، وصورنا عنده في صورة من لا يقدر على شيء من أجل الضعف وسن الصبا وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليها بأسرها ، على أن يعاقده إذ تمكن من البلدة ، ان يجعلها ملكه ، وله ما ألفى من أموالنا . وألقى يده في الفونش ، عازماً عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك

أموالاً جسيمة ، ووعده بخمسين ألف مثقال إذا تمت القضية ، ليعطيها زائدة على ما يجد ، لمساعدته على السير .فأدرك الرومي من ذلك طمع كثير ، وقال : هذه نصبة (قضية) لست أخلو فيها من فائدة ، وإن لم تحصل البلدة ! وأي فائدة لي في اعطاء بلدة من واحد لآخر إلا تقويته على نفسي ؟ ولكام كثر الثوار ووقع بينهم التنافس ، كان لي أفئد. !

فأتي على نية أخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض . ولا كان أيضاً في أمله أن يأخذ البلاد لنفسه ، فإنه عمل في ذلك حساباً أن قال : أنا من غير الملة ، وكل الناس يشنأني ، فبأي وجه اطمه في أخذها ؟ إن كان من باب الطاعة ، فأمر لا يمكن ، وإن كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه إن صارت إلي. ولو صارت لم تمتسك إلا بأهلها ، ثم لا يؤمنون ! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ! ولكن الرأي ، كل الرأي ، تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبداً ، حتى ترق وتضعف ، ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت ، وتأتي عفواً ، كالذي جرى بطليطلة ، إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت إلي بلا مشقة. !

وكنا نحن نعلم هذا من مذهبه ، على ما كان يخبر به وزراؤه . ولقد قال ذلك شيشلاند في حال هذه السفرة ، وشافهنا بذلك ، وقال : إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر ، حتى غلبهم العرب ، وألحقوهم بانحس البقع : جليقية ، فهم الآن عند التمكن ، طامعين بأخذ ظلاماتهم ! ولا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكف. !

فكان الجميع يساير الأمور ، ويدافع الأيام ، ويقول : من هنا إلى ان تتم الأموال وتهلك الرعايا ، بزعمهم ، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين ! .

فورد علينا من إقبال الفونش مع ابن عمار هول عظيم ، وصح عندنا أنه لم يأت إلا طالباً لملكنا : قد استوثق من الفونش على ما قدمنا ذكره .ثن أرسل إلينا ينذر

بإقباله ، ويأمرنا بالخروج إليه ، يرى أنه يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشك أن ذلك للتقبض علينا وانجاز ما عاقد عليهم . فاجتمع إلينا أهل الرأي والمشورة ، وقالوا : ما الذي تذهب إليه ؟ هذا عدوٌ قد جاء لطلبك ، ولا قدرة بك على مناوأته ! وسواء عليك خرجت إليه أم بقيت ! فإن انت بقيت ، حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفاسدة ، وأصاب مطالبك سبيلاً إلى العمل ، وتكون هذه أشد من الأولى ، وقت رفضنا بطره شولش وألقى ابن عمار يده فيه حتى بنى علينا بليلش .والآن لم يتروح مخنّقنا حتى نعود إلأى ما هو أدهى وأمر ، فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا الجيش ، لم تبق ولا تذر لشفعة ما قد دهوا به قبل ، وكان الرجاء ينقطع ، ويتلف الكل حتى تؤخذ هنا باليد على غير صلح ، فلا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، فالخروج إليه أيسر لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرت رأيك ، وثبت ملكك ، وإن كانت الأخرى ، كان خروجك عن أمان ، وصرت حيزاً في العافية ! فأعزم على لقائه ، وقل له قولاً ليناً ، ولله أن ينفذ قضاءه.

فاستعددنا لذلك جهدنا ، وأجمعنا حوالينا من نثق به من رجالنا ، وأخذنا أهبة الحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبالغنا بالضرورة في إكرامه ، فأعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ، وودعنا أنه يحامي عنّا كما يحامي عن بلده. ثم وقعت المعاملة ، ومشت الرسل منّا إليه ومنه إلينا ، يبين ما عوقد عليه وأنه سيق سوقاً ، ويقول : إني قد تشبت في الأمر ، ولم تعجل حتى نسمع ما عندكم . فإن جاملتموني ورأيتم لقصدي وجهاً ، انصرفت عنكم على خير ، وإلا ، فها أنا مع من عاقدني ! ، وطلب خمسين ألف مثقال . فشكونا إليه قلة البلاد ، وأن ذلك لا يقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد ، فإنه لو أخذ غرناطة ، قوي عنصره ، ولم ينقطع إليك . فخذ ما نقدر عليه ، واترك رمقاً لا نستأصل من أجله ! وما تركت ، تجده عندنا متى ما طلبت ! فقبل العذر بعد جهد عظيم ، وقاطعناه لقصده بخمسة وعشرين ألفاً ، نصف العدد ، ثم أعددنا له من الفرش والثياب والآنية كثيراً ،

استدفاعاً لشره ، وجمعنا ذلك كله في خباء كبير ، ودعونا إليه . ولما رأي الثياب استحقرها ، ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة آلاف مثقال لتتم بها ثلاثون ألفاً ، فأكملناها له لئلا ينفسد الأكثر عن الأقل . فشكر على ذلك كله ، وطابت عليه نفسه . ورجع على ابن عمار يقول له : كذبت لي في قولك إن غرناطة في ضعف ، وان صاحبها من صغر سنه لا يعقل ! ورأيت من رتبتها وأحوالها ما خالف قولك. !

فرجع ابن عمار يسأله أن يعقد بيننا عقداً يوقف عنده ، واستماله على أخذ اسطبة من عندنا ، وكانت معقلاً عظيماً مما يلي جهات اشبيلية ، قد كان أخذه قائدنا كباب في الفتنة ، وسألناه نحن خبر القلعة ، فوقع الاتفاق على أن تكون قلعة أسطلير عوضاً من إسطبة.

وكانت قاشتره ومارتش المعقلين اللذين على جيان . ومن اجلهما انقطع صاحبها عمنا] ماكس [ولم يكن لجيان معنى إلا بهما . فترامى ابن عمار في امرهما على الفونش ، ووعده على مارتش باموال كأنه يشتريها منه .فعزم علينا فيها للطمع في المال ، ووعدنا نحن على قاشتره بالمطمر ، وكان أيضاً حصنا قد اشتراك نظره مع نظرنا بيد ابن ذي النون ، ضمن خبره انه يعطيه لنا عوضاً منها ، فدافعنا الأمر جهدنا : فلم نقدر على أكثر فعل القوي مع الضعيف.

ثم إنه عقد العقد بين يديه على ذلك ، وأن لا يتعدى منا أحد على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطي كل عام من الضريبة : فجعل علينا عشرة آلاف مثقال في العام ، وطيّب لنا الكلام بأن قال : طمع ابن عمار أن نغدر بك ، ومعاذ الله من ذلك أن يشيع في الدنيا أن مثلي كبيراً في الروم يقصدك ، وأنت كبير في جنسك ، ثم نغدر بك ! فأبق على أمان ! لا اكلفك إلا الضريبة ، توجه إلي بها في كل عام دون مطل ، وان تأخرت بها ، أتاك رسولي عنها وتلزمك عليه نفقات ، فبادر بها. !

فقبلنا قوله ، ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرته خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، إذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته ، ولا وجدنا من

سلاطين الأندلس عوناً عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا . فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة ورفاهية ، ولا يسمع فيها بفتنة) [٥٢] .

ومجدداً ، يصور ابن بلقين المشاهد كلها من وجه نظره ، ليس هذا فحسب وإنما يورد أحاديث متخيلة على لسان الفونسو ، ، **ويمكننا أن نسجل منهجه الدفاعي من هذا النص الطويل من خلال الجوانب الآتية :**

١. يسجل ابن بلقين أن دفعه للأموال (دفع بها مضرته خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد) وهو ربط لسلوكه بإنقاذ البلاد مما قد يواجهونه .

٢. يكرر عدم قدرته على ملاقاة الفونس او مجابهته بسبب الضعف الداخلي الذي كان يعانيه ، وعدم وجود العون الأندلسي بل المنافس فقط ، وهنا نتساءل عن غياب أي مسعى إيجابي له لدعم وحدة الأندلس او جمع الكلمة بما يعضد هذا التوجه .

٣. مع أن مشهد الهوان والذل الكبير الذي يورده ابن بلقين نفسه (ثم أعددنا له من الفرش والثياب والآنية كثيراً ، استدفاعاً لشره ، وجمعنا ذلك كله في خباء كبير ، ودعونا إليه . ولما رأي الثياب استحقرها ، ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة آلاف مثقال لتتم بها ثلاثون ألفاً ، فأكملناها له لئلا ينفسد الأكثر عن الأقل) إلا إنه يبقى يحاول التلميح إلى أنه ند لألفونسو [٥٣] فيقول (فشكر على ذلك كله ، وطابت عليه نفسه . ورجع على ابن عمار يقول له : كذبت لي في قولك إن غرناطة في ضعف ، وان صاحبها من صغر سنه لا يعقل ! ورأيت من رتبتها وأحوالها ما خالف قولك. !) .

وفي ظل هذه الأجواء السيئة ، والتواصل في التراجع ، كانت الأندلس على موعد مع حدثين مهمين ، الأول : سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ بيد الفونسو السادس ، والثاني بروز المرابطين كقوة مسلمة من الممكن أن تمثل الظهير والمساند للأندلس .

لقد أوجدت الخسارة الكبيرة لمدينة طليطلة المهمة جواً من الترقب والخشية لما ستؤول إليه الأمور من جهة [٥٤]، مثلما نبهت قوة المرابطين الناشئة زعماء الطوائف إلى إمكانية الاستعانة بها لدرء الخطر الذي بات يقترب منهم ودفعه ولو إلى حين [٥٥]، وهو ما تحقق في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ [٥٦] ، فلما (تيقن كل من ثار ورأس ، ولا سيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس ، مذهب الفنش فيهم ، وأنه لا يقنع منهم بجزية ولا هدية ، رأوا أن الرجوع إلى الحق أحق ، فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بامير المسلمين يوسف بن تاشفين ، على أن ينخرطوا في سلكه ، ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له باباً الى الجهاد كانوا قد سدوه ، فأجابهم إلى ما سالوه ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، إذ كان راغباً في جهاد المشركين ، والذب عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وطلع بدر التأييد من خلال غمامه) [٥٧].

وبعد ان انتهت الزلاقة بكل ما صاحبها من اجواء إيجابية [٥٨] ، وازمع يوسف بن تاشفين على الرحيل بعد أداء مهمته ، حاول ابن بلقين الحصول على مساندة عسكرية من يوسف بن تاشفين ، فلما كان الجواب أن انتهوا من خلافاتكم تتوفر الحماية لكم ، عاش وضعاً لا يحسد عليه ، ويسجل حواراً وحديثاً مع نفسه بالغ الأهمية ، لأنه يعكس إلى حدٍ كبير منهج التبريري لسلوكه من أجل بقاء ملكه ، فيقول : (ولما حان انصرافنا من لييط [٥٩]، كلمنا أمير المسلمين في عسكر يتركه عندنا بالأندلس ، خوفاً من الرومي ان يكلب عليها ، ويطلبنا بثأر تلك السفرة وغيرها ، فلا يكون عندنا بمن ندافع ، فقال : اصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم ! ولم يعطنا عسكراً ، فأيقنا أن الرومي لا يدعنا على هذه الفرصة دون طلب ، كالذي

كان ، فلم يلبق أن احتفل وأتي طالباً للمال ، متجنياً على من خالفه أن يفسد بلاده ، وعاقد صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرق ، فدافعوا شره ودفعوا إليه ما سلف له عندهم [٦٠] .

وبلغني الخبر، وزاد ذلك في غمي ، وعلمت أني فيه كراكب الأسد : أن اسلمت البلد ، ولا عسكر عندي ، هتك ، ولم ينجبر لي فيه درهم ، ولم أعذر مع هذا ، ولا يقر المطالب بأن يقول عني أني ضيعته أو سقت إليه العدو ، كالذي رأيت وسمعت قيل عن ابن رشيق ـــــ وخسارة بلدي زائدة ـــــ ولا نقيم أوداً بذلك لكل ما نحاوله من الغزو كل عام وضيافات المرابطين ، فتجتمع علي الخسارة من وجهين .وإن واسيت القوم وأصلحت على نفسي ، قيل : قد عاقد الرومي ! ويشنع على ما لم أفعل ، كالذي كان .فلم أنج مما توقعت للقدر المقضي ما يعطى كالذي عهدناه منهم ! اللهم لو كان ، ونفذ ذلك ، ويبلغنا عن أسرى المسلمين عندهم ! أليس من الصلاح إفداؤهم بما عز ، فنحن جدراء أن نفعل ذلك قبل رحلتهم دون فساد في البلد ! ونحتسب ذلك لله تعالي ، وهو العالم بالضمائر ! فإنا لو فعلنا ذلك أشراً وبطراً ، وعندنا بمن ندافع ، لكان فيه الحجة علينا ! . فاجتمع رأينا على ارضائه باليسير ، مع معاقدته ألا يقرب لنا بلداً بعد أخذ هذه الدفعة ، فارتبط إلى ذلك . فلما حصلت عنده ، قال : ها أنا قد صلح جانبي ! والوكد عليكم أمر الفونش ، الذي هو على الحركة عليكم وإلى غيركم ، فمن أنصفه نجا ، ومن حاد عنه ، سلطني عليه ! إنما انا عبده ، لا بد من اتيان مرغوبه ، والوقف عند أمره ، ولا ينفعكم هذا الذي اعطيتموني إن خالفتموه ، وليس بنافع إلا فيما يخصني دون رئيسي إن حد لي ضده ! .فعلمنا أن قوله حق يقبله العقل . فقلنا له : لا يمكن أن نوجه نحن إليه ونبدأه فنوقظه لأكلنا ، ولكن ، متى أرسل يأذن بذلك ، سنعتذر إليه ، فعسى ان يقبل رغبتنا ، ولم نفتح له باباً في إعطاء شيء إلا يزيد طمعه ! اكثر من تلوي القول ، عسى من هنا إلى ذلك الوقت ، أن يأتي عسكر يُكسر به ، فلا يعبأ بقوله ، وإن لم يأت احداً ، لم نكن نقدم إليه قبيحاً ، فنشقى عند ذلك) [٦١].

(وتأهب الفونش إلى الحركة ، وقدّم رسوله بين يدي حركته . فلما صحت عندنا ، أتانا منها المقيم المقعد ، ولم ندر أين الخيرة : إن كان في رفض البلد وتركه ليعبث فيه ، أو مداراته بما تيسر . ووقعت من ذلك هيبة في الناس ورجة ، حتى بلغ من الجزع أننا لم نصدق أن يقبل منا المال دون الملازمة لنا ، طالباً لإحنة (حقد أو عداوة) ليبط ومعاقدة المرابطين وطمعنا ان يقنع رسوله باليسير ، فقال لي : " لم آت عن ذلك كله ، إلا أن تعطيه ما فاته عندك من جزية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفاً ! لا ينقص منها شيء ، وإلا فها هو مقبل ! والذي تقدر عليه فاصنع" . فرويت الأمر في نفسي ، ورأيت أن التعاطي (المكابرة) حماقة لا تفيد ، وقلت : إن أخذت هذه من الرعية ضجت وشكت ، ويكون مقدمتها بمروكش [٦٢] شاكين : يقولون :" أخذ أموالنا وأعطاها للنصارى " ! ولكن لهذا الوقت يحتاج الإنسان ما ادخر ليصون به بلده وعِرضه . وانا جدير ان أعطي ذلك من بيت مالي ، بحيث يسلم البلد ، وبحيث تشكر الرعية بمدافعة عدوها دون تكليفها شيئاً ، ولا تقع الشُنعة ! " ففعلت ذلك وأرسلت إليه ثلاثين ألفاً ، لم أرزأ أحداً فيها درهما) [٦٣].

والنص الذي بين أيدينا يشير إلى :

١. مدى الضعف الذي آل إليه وضع ابن بلقين إلى درجة قوله (أننا لم نصدق أن يقبل منا المال دون الملازمة لنا) كما عبر !.

٢. محاولة تبرير مواقفه بهذا الضعف الذي لم يعد ــ كما يبدو ــ هناك امل بدفعه وتغييره ، وتثبيت أن هذا الواقع منع أية محاولة للتغيير والاصلاح .

٣. ربط ابن بلقين تصرفاته هنا وفي مواضع أخرى بسلامة البلد والرعية ، وحاول الاشارة إلى دفع المال من أمواله الخاصة حتى لا يستثير الرعية ، وهنا يثار سؤال مهم : هل إن الخلاف حول دفع الأموال للإسبان في مصدر المال ، أم في أصل التعاون والاتفاق ؟ وهل الأمر بمدى المبلغ

ومن دفعه أم بما يحمل ذلك من معاني سلبية وتأثيرات مدمرة على أرض الأندلس ؟ .

ويمضي ابن بلقين في سياسة التعاون مع الإسبان ودفع الأموال لهم مع قناعة مسبقة نقض العهود من قبلهم ، محاولاً حصر سبب ذلك بدفع الضرر ، وتسجيل رفضه الاستعانة بهم على أي مسلم ، فيقول :

(ورأيت مع ذلك أن أجدد معه عقداً ألا يعترض لي بلداً ، ولا يغدرني بعدها ، خوفاً أن يقتلب علي ، فأجاب إلى العقد . وقلت في نفسي : إذ لا بد من دفعها فبالعقد أولى . فإن حوجّنا إليه ، وجدناه ، وإن استغنى عنه ، كان مكانه سمر القنا والبيض الرقاق ، إن تداركنا الله بعسكر يدفعه ، والحرب خدعة ، وإذا لم تغلب ، فاخلب . فأجاب إلى تلك المعاقدة ، حرصاً على أخذ المال ، ونحن لا نشك أنه يغدر ، كالخاطر لنفسه للضرورة التي لا سبيل إلى سواها .وقال لي عند ذلك رسوله : " يقول لك الفونش : إن كنت تريد تخلط مع هذه المعاقدة استعانة به على شيء من بلادك عند ابن عباد ، فهو يجد لك فيها في وجهته هذه ، فأجبته : إني لا أعين على مسلم أحداً ! وإن الذي دعاني إلى المعاقدة المدافعة على بلدي وأهل ملتي . فإن وفيتم بذلك فهو المراد الذي إليه قصدنا . وكان من نيته أن يخلط الفتنة بيننا وبين ابن عباد ، ليجد بذلك السبيل إلى بلاده ، ويقوى عليها بأموالنا ، ويتسبب إلى طلب كثير من أموالنا إذ كانت تلك الثلاثون ألفاً على وجه الدّين للمسالمة فقط ، وإنما أراد استئناف عمل . وكان مع هذا لا يثق بقولنا ، ويحسب ذلك منا خدعة . وقلنا له : إننا مغررون في هذه الفعلة معك ، وستدركنا تباعاتها عند المرابطين ، ونطالب بذلك ! . فقال ، تسهيلاً لأخذ ماله : متى أدرككم في ذلك منه طلب ، فعلي الذب عن مدينتكم ، فأجبناه : بل ، هو يرى عذرنا ، وقبوله وعطفه أرجى عندنا من معونتكم فانفصلت الحال على ذلك ، وقال : لا بد له من تدويخ سائر البلاد من نظر ابن عباد وغيره ، إن لم يعطه ! ، فقلت : هذا أمر لا يسألنا الله عنه يوم

القيامة ! كل أحد مسؤول عن رعيته ! . نحن قد أحتلنا على ما قلدنا الله أمره وفدينا أرواحهم وأموالهم ! ومن له في بلاده حاجة من سائر السلاطين يقابل أمركم حسب قدرته ، إن شاء بفداء او قتال . لا نتكلم نحن في شيء من هذا ، ولا ينبغي لنا ، ولا أنتم واقعون تحت أوامرنا ، فننهاكم عن ذلك ، ونحن لم نتخلص من التحصين على ما يخصنا إلا بعد كد ، وما كدنا ، فشأنكم ! وأنا بريء ، لا أغمس في ذلك يداً ولا لساناً . ولم أجد وجهاً نرجو به بعض الدفاع عن إخواننا المسلمين أكثر من مخاطبة المعتمد ، نعلمه بجلية حالنا معهم ، وما ذكروه من إبطاء بلاده ، وننذره بذلك ، لكي يقلع ، ويدرع الحزم ، ويقدم للأمر أهبته) [٦٤]

تبين مع التبرير الذي قدمه ، أن ابن بلقين كان يضع في اعتباره اللجوء إليه ، وأن المرابطين كانوا يشكلون هاجساً بالنسبة له ، ثم ألا يبدو الغريب الشعور بأن الفونس والتفاهم معه (مع احتمالية عدم الالتزام والغدر) كان الأقرب والأيسر لدى ابن بلقين من التفاهم والاتفاق مع المرابطين ، وبطبيعة الحال هو يسوق ذلك ضمن تصور يطرحه تجتمع فيه معاني (الضعف الداخلي والضغط الخارجي وفقدان المعين وكثرة الواشين) .

ولو أتينا على أهم جانب في حياة ابن بلقين السياسية ، ألا وهي خلعه من قبل المرابطين [٦٥] ، نجد ان يجعل الأمر يتمحور بالصورة السلبية التي كانت تصل لابن تاشفين ، وهنا من المهم الانتباه إلى الاشارات المتناثرة التي لاحت من خلال كلام ابن بلقين عن المرابطين .

وثمة إشارات عديدة نوردها هنا ، ومنها :

يقول ابن بلقين : (عملت هذه المعاني كلها في نفس أمير المسلمين ، مع ما صورت عنده بكثرة الأموال المكذوب عليها ، والمنفقة في طاعته والجهاد معه لو بقيت الحال) [٦٦] .ونلاحظ هذه الاشارة إلى وجود مبدأ الطاعة له لو بقي الحال ، مما يشكل موقفاً فردياً لم نجد له صدىً او انتشاراً .

ويقول كذلك : (ثم خاطبنا أمير المسلمين ، نقص عليه جميع ما وقع ، وما دفعت الضرورة إليه ، وأن الحاضر أبصر من الغائب ، ولو الحال تقتضي بمطلها ، ولو بمقدار وصول الخطاب بمشورته سلامة للمسلمين ، لم أقدم شيئاً في ذلك ولا أخرته إلا عن رأيه ، كالذي يلزم ، غير أن الحفز كان أشد ، فلم أرَ التغرير بالمسلمين ، وإن الانتقام منهم مدرك بحول الله على يديه . ولم نشك في ان الجواب يردنا بالشكر على ما نظرناه وسددناه ، لا سيما إذ كان الفداء من عندي ولم أكلف فيها مسلماً درهماً . فوردني جوابه مع ما أُملِيت نفسه من الطلب لي ، وصَوّرّت عنده الأمور على غير حقائقها ، بما زاد في جزعي ، يقول : أما مداهنتك وقولك الباطل ، قد علمناه ! وسنعلم عن قريب كيف ترضي الرعية ، وما تصنع إذ زعمت أنك نظرت لها . ولا تسوف ، فإن هذا قريب غير بعيد ! . فلم أقنط مع هذا ، وقلت ، عند الحقائق وتبيان ما وقع ، على لسان رسول يزيل عن باله كلام الأعادي . وهذا من بغي القليعي وأبي بكر بن مسكن ، فإنهم لا ينقلون إلا على شهواتهم . وكان أبو بكر بن مسكن قد بلغ من طغيانه علي وسبّه لي ، ورجائه في ان يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرني (نظيري) او أكثر ، فإنه انتمى إلى بني زيري ، وجعل يهذي بذلك ويفتخر به ، لا يري لأحدٍ عليه فضلاً ، ويسعى في نقض ما نبرم من احوال الدولة ما لا يتم معه ملك ولا أمر . فجعلت الذنب فيه سواء ، كما في القليعي ، إذ مقالته لا تطفئ ما أشعل القليعي لو أراد الخير ، كما أن تركه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلت الهم فيهما هماً واحداً . ولما تشددت عليه ، وأمرته بالكف ، أخرق وهرب دون نفي ، ومضى قاصداً إلى المرابط ، يغري بي ، ويسعى علي ، ويكذب ، ويصور الأمور على غير وجوهها . فتكررت مخاطبتي على أمير المسلمين ، نبين له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلا بالشدة ، وقبول قولهم عبس . فبقيت تلك الأيام على اسوأ حال . لا ندري أين الخيرة ، ولا كيف التخلص ! .

وساء ظن المعتمد بي في دخول النصراني إلى بلاده ، وكفه عن بلادنا ، واعتقد أن ذلك عن اتفاق . ولو كان عن اتفاق ، لأديت عليه مالاً فوق الجزية ، فليس لهم إلا بني الكرى غير منطاعين لقول أحد ، ولم يأت عسكر المرابطين إلى إشبيلية إلا والبلد قد أفسد . والله تعالى يعلن أني ما واسيت في تلك النصبة ، ولا يسألني الله عن كلمة طعنت فيها على مسلم . فاتفقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ، ولو أني أريد ذلك ، والانحياش إلى النصارى ، كالذي قيل ، لم يصل المرابطون إلى سبتة إلا ومدينة غرناطة مملوءة بهم ، وكنت استطيع على ذلك ، وكانت لي في المدة برهة وفسحة طويلة ، إلا أن الأعمال بالنيات ، وتلك القالة إنما كانت سبباً للذي قدّر ، ولو أن قضيتي تستوضح ، لوجد فيها ما لا مطعن فيه ، ولا مقالة ولا بينة ، ولا إسرار في ميل على مسلم ، ولا إدخال داخلةٍ ، وكيف يصح هذا قبلنا ، وأول سيف سل على الروم إنما كان من قبلنا ، وهي الوقيعة المشهورة بالنيبل من طاعتنا في حين تطرق النصارى إليها على حين غفلة ، ووافق ذلك أول ظهور المرابطين ووصولهم سبتة ، ووردنا إذ ذاك ، رسول الفونش معتذراً من الأمر ، فصرفناه عن الطريق ، قطعاً له ، وإيثاراً لأمير المسلمين ، وعند الله تجتمع الخصوم) (٦٧).

ويمكننا تلمس كيف ان ابن بلقين يقع في تناقض بين ضعف الحال ، ومدى المرارة المتمكنة من نفسه ــ وهي صفة لازمة له كما سنرى لاحقاً ــ ، ناهيك عن استرجاع ذاكرة منجزات لم يكن هو حاضراً فيها وإنما هي لتغطية واقع واهي ، لم تكن هناك قدرة على ما يبدو لتغييره ، او هكذا يفهم من سياق الكلام .

وهذه الرؤية التي يكررها ابن بلقين حقيقة الأمر تتقاطع مع مدونات المؤرخين الذين سجلوا واقعة خلعه من قبل يوسف بن تاشفين ، إذ نجد اجماعاً على أن ذلك كان بسبب تجدد التواصل والتعاقد مع الفونسو السادس ، فقد (كان جوازه الثالث ـــ أي يوسف بن تاشفين ـــ في سنة ٤٨٣ هـ أنه لما كان على حصن لييط نُقل إليه عن (ملوك الأندلس) كلام أحفظه ووغر صدره عليهم ، وهو الذي أزعجه إلى

العدوة ، ولما تبين لهم تغيره عليهم وإعراضه عنهم ، نظر كل واحد منهم لنفسه بغاية حزمه ، فأول من شهر ذلك وتظاهر به وجد فيه المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس ، واتصلت انباؤه بيوسف بن تاشفين فاشتد غضبه وزاد حرجه عليه .. وتوالت عليه الأخبار من عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده) [٦٨] .

كما يعزز ابن الخطيب ذلك بقوله عن يوسف بن تاشفين أنه (نازل حصن لييط من كورة تدمير ، وتعذر عليه فتحه ، فقفل إلى بلاده المراكشية ، وقد وجد على ملوك الأندلس ، واتهمهم بالإغماض في أمره . وداخله الناس في شأنهم ، ودست إليه السعايات بهم ، فأعاد الجواز ثالثة سنة ٤٨٣ هـ ، وشرع في خلعهم ، فتم له ذلك) [٦٩]

ويصرح صاحب الأنيس المطرب أنه (لما رجع ــ أي يوسف بن تاشفين ــ من غزو طليطلة سار إلى غرناطة فنازلها ، لأن صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس ، كان قد صالح الفونسو السادس وظاهره على يوسف وبعث إليه بالمال ، واشتغل بتحصين بلده ، ولذلك قال بعض أدباء عصره :

يبني على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير

دعوة يبني فسوف يدري إذا أتت قدرة القدير) [٧٠] .

(ولما اجتاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس من بعد الوقيعة بملك النصارى يوم الزلاقة ، شارعاً في خلع رؤوساء الأندلس ، وبادئاً منهم بعبد الله حفيد باديس ، وقد حركه إليه إغراء طائفة من خدامه لحقت به ، واتصلت به عنه الاستعداد واتخاذ البلاد ، وتجديد الأسوار ، ومراسلة صاحب قشتالة (وتجني عليه تجني الذئب على المعزى ، حسبما يتمثل به الناس ..) [٧١].

ومن المهم التوقف عند موضوع بناء الحصون وتشييدها ، مما سبقت الإشارة إليه أعلاه في أبيات الشاعر السميسر ، إذ يعده المؤرخون أحد أسباب خلعه ، إذ يقول ابن بلقين : (فصرفت وجه اهتبالي إلى تشييد الحصون وبنيانها ، وإعداد ما

يصلحها لإحصار إن كان .. فلم أدع وجهاً من وجوه الحزم إلا وفعلته : من إقامة الأجباب [أي البئر العميقة] ، وإعداد المطاحن ، وأنواع العدد من التراس والنبل والرعادات ، وجميع الأقوات .... وقلت : ليس في الممكن أن يتعرض أمير المسلمين أحداً من سلاطين الأندلس إلا بعد إبرامه لأمر الرومي ! ولا بد عند مناظرتهم من فرج : إذ غلب المرابط لم يفتنا الدخول في طاعته ، ولا أسدينا إليه ما تذم عاقبته أكثر من الاحتياط على بلادنا والمداراة عليها ، فلا الحمار سقط ولا الزق انخرق ، نحن مدركون : لا ينبغي تقديم يد سيئة إليهم ، وإن غلب الرومي كنا منه على حذر ، قد نفعنا ما أبرمناه من هذا البنيان والتشييد ، واتخاذ العدد ، فسيكون بذلك للمسلمين حماية وانجرار إلى غد إذ البينان من المرابط لا ينفع ، ولذلك أعددنا المنكب : إن تغلب الرومي فأكون على البحر متصلاً بالمسلمين ، ندافع منها جهدنا ، إلا أن نضطر إلى الجواز وطلب السلامة بحشاشة أنفسنا ونتف من أموالنا ، فشيدتها لذلك كالذي شهر عنا .

والجاهل لا يدري ما أول هذا ولا آخره إلا ويخبط خبط عشواء ، فكل يتكلم على شهوته . ولم نعتقد في أمر المرابطين ــ يعلم الله ذلك ــ صدهم عن جهاد ، ولا تظافراً مع أحدٍ عليهم ، ولا أردت بهم شيئاً من مساءة نسبت إلينا ، اكثر من أني جزعت الجزع الشديد مما تقدم ذكره من تلك المعاني التي أبصرتها ، وما جرى على ابن رشيق مع هلعي لذلك ، وتمكن السوداء مني ، وسء الظن مع معاينة اليقين ، فقلت : ما دام تلتقي الفئتان ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة : فتحصينها أولى ، ولن يضر ذلك فمتى دعاني أمير المسلمين إلى إعطاء عسكر أو مال أو ما أشبه ذلك مما يجب من مشاركته وإنجاده ، لم نتأخر عنه ، فنقيم على نفسي الحجة ، ونجلب إلي المضرة إن فعلت غيره ، غير أنه ، متى دعاني إلى الخروج إليه بنفسي ، نعتذر وندافع ذلك جهدي ، فعسى أن يتركني ويقبل عذري ، ومتى لم يقبل لي عذراً ، نعلم أنه يريد إخراج أمري إلى حدود الفعل ، فهو إذا علي متعسف لكلام الأعداء والكذب ، فلا بد لي عند ذلك من الاحتياط على مهجتي

والتحصين على نفسي ، ونجعله إذ ذاك كسائر من يريد إخراجي من السلاطين ، ولي معه الله إذ لم أنو به سوءاً ولا واسيت عليه أحداً ، ولا صددته عن جهاد ، فبأي شيء يتسبب إلي إلا إن شاء التذنيب مع القدرة ؟ فلا طاقة بذلك ... وكنت أيامي تلك بين الرجاء والخوف ، إلا إن واثق بكل من معي من رجالي وخدمتي أنهم لا يغدرونني . فقويت نفسي لذلك بعض القوة ، مع ما كنت أعددته) [٧٢]

وفي هذا النص الطويل المهم ، يمكننا تلمس الجوانب الآتية :

١. يظهر بجلاء مدى الاضطراب الذي ألم بابن بلقين ، فهو وسط طوفان من الحيرة والخوف والجزع .

٢. يبرر ابن بلقين موقفه كالعادة ويربطه بحماية المدينة والمسلمين وبالوشايات الكاذبة التي شوهت دوافعه ، بل ويعد تحصين مدينته أحد منجزاته التي كان من الواجب أن يشكر عليها ، فإذا كان هذا ظنه فهو دليل غياب الاستقراء الدقيق لواقع الساحة السياسية الأندلسية والمغربية ، وإن كان لا ، فهدفه من حديثه هذا هو التبرير لا غير.

٣. يناقض ابن بلقين نفسه في موضعين على الأقل ، فبين ان الحصون لا تنفع أمام المرابط ، وبين التحصين على نفسه [٧٣] ، وبين أن لا نية سوء إزاء المرابطين ، وبين التعامل إذا اقتضى الأمر مع ابن تاشفين كأي سلطان يريد اخراجه ، وبالتالي تعكس تلك التناقضات الحالة التي كان عليها وقتها .

٤. يتجلى ضعف تدبيره حين يبدي مقدار الثقة العالية بالجند الذين لم يقفوا معه .

٥. ثمة سؤال مهم ، لماذا بقيت هذه الأفكار حبيسة صدر ابن بلقين ، ولم يحاول إيصالها إلى المرابطين كما فعل غيره ، وهل تدوينها بعد نفيه بهذه الصورة مقصود لضمان رعايتهم له ، أم أن الصورة السلبية المتكونة عنهم باتت أكبر وأشد قتامة من أي تفسير او تعليل ؟ .ولو أمعنا النظر في الروايات المتعلقة باستسلام ابن بلقين ، لأمكننا تثبيت ملاحظات عدة ، **من أهمها تبرير مواقفه ، والالماح إلى**

إن خلعه لم يكن بسبب منه ، وإشاعة شعور الزهد بالمال والملك وغيرها ، وهي نقاط مهمة ومقصودة للإيحاء بسلامة موقفه ، فضلاً عن ارتباط ذلك بصفاته كما سنعرض في المبحث القادم ، ولنطالع مثلا هذه الأقوال :

(واجتمع[أمير المسلمين] بالمعتمد ، وسأله عما لهج الناس به من مداخلة الرومي ، فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كل ما وصفناه . وأرسل أمير المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : أقبل إلينا ، لا تتأخر ساعة واحدة !. فرابني ذلك وهو موضع الانقباض ، لما تقدم من الطلب ، وأن بمحضره جميع اعدائنا وإلحاحه علينا في الوصول ... فلم ندر ما نصنع ، و" اتسع الخرق على الراقع " وقلت : لا طاقة لي بجميع أهل البلاد ، إذ غدروا وخرجوا على الطاعة ! فبمن نمسك الحضرة ؟ ليس فيها خلق من غير جنس ممن كان في المعاقل ، " ولا يتمكن للخباء ان يقف دون اوتاد ! " ولا في الأمر من مداراة ولا حيلة مع الرجل أكثر من رغبته في خلعنا ! ولا ثم غيره يسند إليه فنستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطامة الكبرى ! ولا في الممكن أن نوجه إلى الرومي ، فيكون ذلك فساداً في الدين واستعجالاً للمكروه ؟ وإن شعر بذلك اهل حضرتنا كانوا اول من يقاتلنا قبل المرابطين (خوف .عامر) ما دام الستر بيننا وبينهم ، فيكشفون لنا القناع على بصيرة ! فما عهدنا أياماً ولياليَ كانت أفجع لقلوبنا ، وأدهى لنفوسنا من تلك الأيام ! فرّويت هذا الأمر ، وعلمت أني بحال ومكان لا اختيار لي فيه ، وأن المذهب في ألا اليّ معقلاً ، وأنه لا مهرب من بين يديه . فقلت : من السخف يكون أن أقول : قد اخترت موضع كذا ! فإن كان لها كارها ، لم ألبث أن أرد منه بتحلل وحجة للقوي على الضعيف ، وإن كان في نفسه العوض ، فبخروجي إليه يربي على ما يعتقده من احيان ، ولا حيلة غير الخروج والترامي عليه ، فإن كان قد اجمل وقبل ، فله الفضل ، وعليّ الشكر آخر الدهر ، وإن كان قد غدر ، كنا واثقين بالقدر ، وأبلينا عند الله وعند الناس العذر !) [٧٤]

ونلمح تصريح ابن بلقين بتوقعه احتمالية عدم التعرض له أو الغدر به ! وكل ذلك دون إقرار بخطأ أو تسليم بما يقال ، وإنما ترسيخ المنظور الذي كتب فيه سابقاً وظل يكرره ، انه ما فعل شيئاً إلا لمصلحة عامة ، وإن ما نقل لابن تاشفين من أكاذيب هي سبب ما جرى .

(... وأنا لا ابتغي إلا العيش لخاصة نفسي وأهلي . وقد خفف الله عني بقلة العيال ، ولا خير في الغرر بمال لا أدري إن بقي معي ، مع اختلاطه وكثرة شبهاته ! وكثرة المال إنما يحتاج للمملكة والأجناد . فالآن قد أزاح الله ذلك عني ، ولم يبق إلا طلب السلامة بحشاشة النفس ، وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد ! ... وإنما هذه النصبة لم يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أمل ولا رجاء ليسر ، إلا بحيث يحتسب . فأذهلني ذلك عن كل ما لي فيه صلاح من تقدمة النظر في مال أو غيره ، بل كانت نفسي آكد علي ، لم تعمل حساب من يعيش ، لا سيما من لم تجر عليه قبل ذلك محنة ، ولا اكربه الدهر برزية ، فجاءت جملة ، أبهتت وخانت القياس ، وحادت عن سبيل العهود ... ورجعت إلى الوالدة ، أعظها ، وأقول لها أسألك بالله ! إلا ما أشفقت علّ ؟ فربما قد أخرجتن شيئاً لا أعلمه ، فيظهر بعدي ، ويكون فيه هلاكي ، وهلاكك ! والدنيا أقل من هذا كله ! والقوم ، كما ترين ، متعلقون بشعرة يطلبون معنا أرق سبب ! فإياك ان تشمتي بي ! وإذا تبرأنا له ، لا يمكن له تضييعنا . وليس يدخر المال إلا لثلاث : سلطان يجور ، او فتنة تدوم ، او عمر يطول . ونحن في نفي يسير !) [٧٥] .

ونلاحظ هنا هذا الحوار الداخلي مع النفس ، وتقديم الافتراضات ثم الاجابات ، وهو فضلاً عن كونه جزء من شخصيته ، يمثل دليل اضطراب وخوف وجزع يفرضون أثرهم عليه .

ثم يقول : (وكم عسى العيش في هذه الدنيا ! والنجاة بالنفس في دار الدنيا وتخليصها من الاوزار في الآخرة ، لا يبالغ ذلك شيء ولا يعدله ! فاستعملنا العقل الذي جعله الله أميراً على كل شيء ، وكل قوة لا يتأتيها العقل ضعف وسكر ، مع

سوء العاقبة . ولا سيما أننا بحال لا بد من إسخاط الروم بإرضاء المسلمين ، أو إسخاط المسلمين بإرضاء الروم ! فالآن يرثها المسلمون أولى وأجمل للعاقبة ، إذ هي نشبة لا ملجأ منها إلا بما ذكرنا ... فخرجنا إلى الرجل ، كأنما نساق إلى الموت ، لا ندري ما نلقى إلا كالمخاطر بنفسه ، متوكلين على القدر) [٧٦].

وإذا كانت مشاعر الحيرة بادئة على ابن بلقين في هذه الأسطر وتصل إلى ذروتها في غيرها ، فإن من الملاحظ عدم جعل طاعة المرابطين ضمن المصلحة العامة ، بدليل إشارته إلى ارضاء الروم او المسلمين والحيرة في وجوب اختيار أحدهما ، ولكن حين يضطر إلى الاستسلام يمنح الموقف بعده الديني الواضح لكسب التأييد وتجنب الانتقاد على سياساته السابقة التي أوصلته مع بقية زعماء الطوائف إلى هذا الحال .

ومثلما ابتدأ ابن بلقين كتابه بتثبيت قاعدة التعامل مع الدول والحكم عليها من اجل تجنب الانتقاد على ما يبدو كما أشرنا في بداية حديثنا ، يختتم كتابه بالدفاع عن نفسه ، فيقول :

(ونرد على من اعترض جهلاً أو حقداً : اخسأ بجهلك ، ومت بغيظك ! فليست الأقدار جارية على اختيارك ... وهل تنقم ، أيها الطاعن لنا ، بأننا ورثنا ملكاً عن آباء كرام ، يوم منه خير من عمرك كله ؟ إذ قالت العلماء ، إنه من عاش ذا فضل على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قصر عمره ، طويل العمر ، مع أنه كان في طاعة لم توصف مقدماً ، بحمد الله بجور ولا طغيان ، ولا سفكنا دماً ، ولا غصبنا مالاً . وقد كانت مدتنا نحواً من عشرين عاماً خيراً من سنين ، إذ (ليلة القدر خير من ألف شهر) . وتمام المدد على قديم الدهر عادة لا تستغرب لنا خاصة . ولا بد من الفراق ! فلله الحمد إذ لم نفقدها بفقد عقولنا ولا ادیننا ، ولا تمت بنفاذ أعمارنا : فيوم من عمر الإنسان بذكر الله فيه خير من تمام عمله ، ومينة على بلاء وتذكار خير من ميتة على فتنة غفلة ، ثم أضربت عن وصف كل جميل فعلناه وحزمٍ استشعرناه ، وخدمة للدولة تكفلناها وطلبت بنيات الطريق (الطرق المشتعبة

الصغيرة) ، وتنبعت ما لا عار فيه على الملك ، ولا نقصان في المملكة ، من راحة تختلس عن الفراغ من الشغل كي يعقب نشاطاً ، وعمل دفعنا إليه تسلية . فقط قالت الحكماء " ترك الذات يعقب البَردة (اي التخمة وامتلاء المعدة بالطعام) ويؤثر في الجلد أدواء منكرة . وقيل : إذا لم يكن بالمرء على البقاء مقدرة فليتمتع ، فإن ترك ذلك للنفوس . فهجتنها (أي قبحتها) بلفظك ، وأخرجتها من حيز الهزل إلى الجد ، وكنت كجار سببة (كثير السب للناس) : غن رأي حسنة ، كتمها ، وإن رأى سيئة أذاعها . فطفقت وأربيت إن افتريت ، وما أذعت هذا ، وأنت تعلم أنه لم أكن مخلوع العذار (منهمك في الغي) ولا أخلدت إلى رحة توجب الغفلة ، كالذي صنع من كان قبلنا من ملوك ، وتعففنا عن الدماء والأموال والحرم ! ولم يبق لك ما تقول : إنما كان صاحب غرناطة حريصاً على جمع المال ، محباً في الحسان ، ينادم الصبيان ! لم تحسن الرؤية ، ولا ظننته فكرّا ! .) [٧٧].

وهو لا يريد حتى التفكير بما مضى ، لأنه (لا يرد شيئاً غير الهم والكرب اللذين ينحلان الجسم ويذهبان اللب ، وأن الحرج على ما لا يكون تعب للبدن ومشقة ، والإنسان ابن الآن) [٧٨] ولا يخفى ما لهذا القول من محاولة الهروب من تبعات حقبة حكمه وما تضمنتها من احداث ، تخلصاً على ما يبدو من الذاكرة السلبية التي ارتبطت بها وبشخصيته ، وهو ذاته ما يفهم من هذا النص الذي يورده فيقول :

(وقالوا في الشراب إنه يسلي الهموم . وأنا أقول إنها تهيج الهموم ، إنما هو ما تنزل عليه ، إن ألفت سروراً ، حركت منه ما سكن الإنسان عنه ، وإن ألأفت هموماً ، ذكرت بما هو فيه وأشد منه ، وفتقت إلى طرق السوء .والهم إنما يكون بما ينتظر الإنسان من سوء ، فذاك الذي لا يسليه شيء ، ولا يأتيه منه نعاس ، والغم إنما يكون بما مضى ، فربما سلت الخمر عن بعض ذلك ، ولا شيء يولد النوم مثل الغم بتذكار ما سلف ، أو النظر في كتاب لا ينبغي منه تعلماً أكثر من مطالعة ما مضى) [٧٩]

لقد قدمنا آنفاً عدداً من النصوص التي اوردها عبد الله بن بلقين في كتابه التبيان ، ووقفنا على مدى محاولة كاتبها التحصن بها للدفاع عن مواقفه ، وتبريرها ، ضمن اللجوء إلى عدة حيل دفاعية من أجل تحقيق هذا الهدف .

ولعل من المفيد الإشارة إلى ان عدداً من الدارسين انتبه إلى هذه الناحية ، فانتقدوا التحيز في تدوين بعض الأحداث حينا ، أو تجاهل أحداث بعينها حيناً آخر ، و(كما هو متوقع ، فإن رواية الأمير عبد الله عن الأحداث التي وقعت أثناء فترة حكمه رواية وافية بحيث لم يغفل ذكر أي حدث ذي بال وقع خلال تلك الفترة من تاريخ الأندلس ، ومن الطبيعي أن نجد بعض رواياته تختلف عن روايات المؤرخين الذين جاءوا بعده ، وهو أمر لعل من الممكن تفسيره برغبته في الدفاع عن تدابيره أو وجهات نظره ، أو محاولة دفع الاتهامات عن عائلته) [٨٠] .

ولاحظ البعض أن الأمير عبد الله يغفل في روايته بعض الأحداث المهمة التي وقعت آنذاك في شمال أفريقيا والأندلس ، مما يحمل على الافتراض بأنه لم يرغب في لفت الانتباه إلى هذه الانقسامات في صفوف البربر عامة ، وبين بني زيري على وجه الخصوص ، مثلما يبدو من الغريب كذلك أن المؤلف يمر بسرعة بالفتنة التي نشبت في الأندلس بعد سقوط الدولة العامرية ، في حين أن الكتاب الأندلسيين المعاصرين يؤكدون على دور البربر الكبير ـــ بل والحاسم ـــ في تلك الفتنة التي يذهب ابن حيان إلى نعتها بالفتنة البربرية [٨١].

كما إنه (وفي عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، جرى حدثان كان لهما وقع كبير في كافة أنحاء الأندلس ، إلا أن مما يدعو إلى الدهشة أن عبد الله لا يذكر أياً منهما ، وهذان الحدثان هما استيلاء النورمان على مدينة بربشتر بالثغر الأعلى ، وسقوط قلمرية في يد ملك قشتالة وليون فيرديناند الأول . ولعل عدم ذكر المؤلف لأي من الحدثين يمكن تفسيره بأنه لم يرد أن يلفت الانتباه إلى الانقسامات في صفوف ملوك الطوائف ، وإلى ضعفهم وتقاعسهم عن غوث اخوانهم المسلمين) [٨٢] .

إن الحوادث التي ذكرها الأمير عبد الله بن بلقين في كتابه التبيان والتي مر بها أثناء حكمه لمملكة غرناطة ، وتصرفه تجاه تلك الأحداث ، أراد منها ابن بلقين أن تكون مبررة لموقفه من كل حادثة ، ورغبة منه في نفي ما اتهم به من تقصير أو تخاذل تجاه امته ورعيته وأن لا يجعل للشك موضعاً في نزاهته وإخلاصه لدينه وملته) [٨٣].

المبحث الثالث

الحيل الدفاعية وصلتها بصفات ابن بلقين

لقد رأينا في الصفحات السابقة ، كيف ان ابن بلقين ، حاول الدفاع عن نفسه باللجوء إلى سلوك التبرير أو الاسقاط ، أو استرجاع ذكريات سابقة أو الادعاء بما لم يقم بفعله طيلة سني حياته وحكمه ، ولعل ذلك مرتبط بشكل أساسي بطبيعة شخصيته التي كانت تنطوي على عدة جوانب تركت أثرها على مواقفه ، فغدا بيانها مهماً لكونها تمثل مفتاحاُ يعين الدارس على تفسير منهجه في كتابه التبيان .

وفي مواقف عدة ، نلمس جلياً ان عبد الله بن بلقين ، وجد في مرحلة تاريخية صعبة ، دون امتلاك المؤهلات المطلوبة للنهوض بأعبائها .

نعم هو حاول ان يرسي دعائم ملكه ، او يناور في سياساته ، ولكنه كان الأضعف بين من ظهروا من زعماء الطوائف ، دون أن تعينه مملكته الصغيرة أو مقدراته القليلة ، والكثير من الجوانب الإيجابية كان وظل يتمناها ، ويحدث بها نفسه دون ان يطلع أحد على مضمونها كما رأينا ، وهو امر لافت وربما يبدو غريباً بعض الشيء ، ولكن الغرابة تزول إذا علمنا أن ذلك مرتبط إلى حدٍ بعيد بشخصيته وصفاته ، دون ان نظلم الرجل فنغمط شيئاً من ملامح الايجابية التي اختلف فيها عن غيره من ملوك الطوائف كما سنورد ادناه .

لقد تولى عبد الله السلطة وكان ــ كما يذكر ابن الخطيب ــ (صبياً صغيراً ، لم يقارب الحلم ، فهو لذلك ممن يشتمل عليه شرط كتابنا ممن بوسع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، وغرناطة إذ ذاك حافلة بالأعلام ، وصدور الإسلام ، وحملة السيوف والأقلام)[٨٤]

و (قال الغافقي : وكان قد حاز حظاً وافراً من الباغة والمعرفة ، شاعراً جيد الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ...ووصفه ابن الصيرفي فقال : كان جباناً مغمد السيف ، قلقاً ... مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحات ، ويستوزر الأغمار) [٨٥] ، فلم تكن الصفات الإيجابية من الثقافة الجيدة ، والاهتمام العالي بالأدب والشعر ، لتكون أساساً متيناً في عالم السياسة والحكم .

وحقيقة أن ضعف ابن بلقين المرتبط بحداثة سنه يذكره هو بنفسه في أكثر من موضع ، بل ويكرر أنه لم يعد ذلك الشخص الضعيف (مما يفهم منه وجود هذا الانطباع وشيوعه) ومنها وقت منازعته مع أخيه تميم ، ولما اشتد خلافه مع ابن عمار ، وجدنا الأخير يستغل نقاط ضعفه ، او ما هو مأخوذ عنه ضمن النظرة والتصور العام ، فيقول (فعاد ــ أي ابن عمار ــ ثانية إلى النصراني الفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصورنا عنده في صورة من لا يقدر على شيء من اجل الضعف وسن الصبا وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليه بأسرها ، على أن يعاقده إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه ، وله ما ألفى من أموالنا) [٨٦] .

كما ان الدارسين يسجلون له مواقف أظهرت شجاعته رداً على اتهامه بالجبن ، وربما كان يؤثر السلم على الحرب ، ويتجنب المواجهة ، حتى وجدناه يشكر الله في آخر مذكراته أن نجا من المصير الذي حل بابن الأفطس ، حيث فقد حياته مدافعاً عن نفسه ضد المرابطين لذلك نعت بهذه الصفة [٨٧]

ونجد ان ابن بلقين اتصف بضعف التدبير ، وعدم الحزم ، والتأثر بما يقال حوله ، ليس هذا فحسب وإنما معرفة مواقف المعارضين له وعدم اتخاذ ما يناسب موقفهم ،

فيقول مثلاً عن الفقيه القليعي : (فلما بصرت هذه الحالة ، قلت في نفسي : أنا بسبيلي ، إن استفسدت إلى الجند ، وهم جناحاي ، بقيت وحدي مع من يروم خلعي ، فالأولى على كل حال اطباؤهم ، واستصلاح ما فسد في أنفسهم ، واسخاط القليعي وحده واجب في رضا عامة عبيدي واجنادي. فجمعتهم بمحضره ، وأعلمتهم أني راجع عن ذلك المذهب ، ورادّ عليهم إنزالاتهم ، فقام الكل على القليعي ، وهموا باختطافه من بين يدي لولا إمساكي لهم ، وخشيت مع هذا عليه أن يقتلوه ، فتكون شهرة وعقوقاً ، وينجر الأمر إلى غير المحمود . فقلت : أنا اكفيكم أمره ! . وأمرت بثقافه على أجمل الوجوه في بيت بقرب من القصر ، وكان تحت بر وإكرام ، وأنا في ذلك أعتذر إليه من قيام العامة ، وأعده بالانطلاق عند إطفاء هذه الثائرة ، كالذي صنعت فلما توطدت الأحوال وقرت قرارها ، أمرت بإخراجه ، وأنهيت أن يكف لسانه ، ويدع فضول القول والعمل إلا فيما يعنيه ويشاكل طريقه ، فقال لي : نعم ! أنا التزم الروابط ، وأسلك سبيل العافية إن شاء الله !. فلم يكن إلا ان انطلق ، وطار إلى أمير المسلمين بالشكوى ، وزاد في الطين بلة ، فقال لي الجند : لو أنك أمسكته ، لم يهيج عليك النار ، وستذم عاقبة انطلاقه !)[٨٨] .

وامتاز ابن بلقين بابتعاده عن القتل في صفة إيجابية مهمة زمن الطوائف الذي شهد الانفلات الكبير (في حين أن باديس لم يكن يتردد في قتل اعدائه شبهة ، فإنه لا يعرف عن عبد الله بأنه لجأ إلى القتل للتخلص من اعدائه ، كأبن القليعي وكباب ومؤمل . كان الامير الزيري يلجأ أحياناً إلى السجن أو النفي ، وهو لم يأمر بقتل أبني تاقنون إلا بعد أن أفتى الفقهاء بذلك) [٨٩]

ولعل الصفة البارزة التي اتسم بها ابن بلقين الخوف والجزع والتشاؤم ، والتي ظلت ملازمة له طوال سني حكمه ، بل إنه يصور اللحظات الصعبة التي مر بها على نحو ملفت ومثير للانتباه ، ومن ذلك قوله عن خلع امراء المرية وبطليوس واشبيلية وموقف امراء الطوائف اثناء الحملة على غرناطة : (ونحن ذاكرون منها ما بلغنا منها مما يقبله العقل ، لا بتخليط الناس ، ونختصر من الوصف ما يغني عن

الإكثار : فإنها أمور لم نشاهدها ، فنخبر على يقين وإطناب ، ولا غابت عنّا كل الغياب ، فنجهل مصدرها وموردها ، على أن الذي كنت فيه أشغل وأكرب من التفات ما حدث بعدنا لقلة المبالاة ، بما لا يعنينا منها ، ولشغل خواطرنا بما دهينا به ، على ان ذكر ما سمع ، ونحن أمنّا من الموت ، أيسر من ذكر ما عاينا ، ونحن جازعون منه . فحُقّ لنا أن نذهل عن علم جليته بالمعاينة ، وعن وصفه بعد الأمان ، فإنه من ذكر الهول ، فكأنه فيه) [٩٠]

ويقول بعد رجوعه من حصار لييط : (ولما وصلت وادي آش ، وقد كان ظهر إلي قبل في لييط من جفاء قرور وتخويفه لي ، وتهديدي على لسان الأمير ، والأمير عن ذلك غافل ، غير أنني حسبت ذلك من قبله لما رأيت من مكانته عنده ، فأدركني من ذلك رعب شديد ... لاسيما أن الجزع والسوداء(الكَآبَةُ ، القَلَقُ) متمكنة من نفسي ، وأجدها في طباعي ، كدت أن أموت غماً . ولم أر قط قبل ذلك ذلاً ولا كدراً ، فأنكرت الأمور كلها مع السلطان ، على حسب ما كان يكرمني سفرة بطليوس ، ورأيت ضد ذلك كله ، وقرورٌ يناصبني العداوة ، ويرسل المشاورين إلى هواني ، ويريد في حال تلك الحرب بأوامر باردة ، يريد بها إذلالي ، ويظهر إلى فيها التعنيف والتعسف) [٩١]

وامتلأت نفسه بعد النفس بالكآبة والانصراف عن الحياة وبهجتها ، فيذكر : (كل شيء يحذره الإنسان ويكرهه بقلبه ولا يكون عليه بالخيار فهو متورط لا محالة فيه ، فإن المداراة فيه ، مما لا تنفع ، والاستعمال منقطع ، ولا خير في مجاورة عدوك عند الحاجة إليه ، إلا أن تدرى عند ذم العاقبة معه أنك مستغن عنه بغيره ، وإلا ، فأنت له طعمة)[٩٢]

ويصف لحظات النفي ومدى جزعه وخوفه ، فيقول : (وكنا طول طريقنا جازعين ، لا ندري ما يذهب إليه بنا ، ولا ما الإشارة فينا . ولقد كنت أرى المرابطين ينزلون بمنزل ، او يحتلون في موضع ، فأقول : إن ذلك لشيء أمروا به ! فكنت طريقي ذلك تحت جزع وهلع ، أسأل الله أن يكفر السيئات ، ويجعلها آخر مصائبنا

بعزته ، إلى أن وصلنا الجزيرة . فأرسلنا إلى سبتة ، ودخلنا البحر في يوم عاصف ، أدركتنا فيه أهوال لم نكد نسلم منها إلا بالأجل الذي لم يحضر ، حتى خرجنا إلى سبتة ، بعد أن قيل لنا : فيها تنتظروا الأمير ! ، كما ثيل عن الجزيرة ، فزادنا ذلك قلقاً) [٩٣]

وغنى عن القول أن غلبة هذا الشعور بالخوف ، والجزع المفرط ، وانعدام الثقة والاطمئنان بغيره من الزعماء بل وحتى الشخصيات المشاركة له في الادارة والحكم ، أن كل تلك العوامل كان تؤثر بشكل بالغ في نفسية ابن بلقين وتلجئه ــ على ما يظهر ــ إلى هذا المنحى من الخطاب والسلوك .

ونلمح أن ابداء الرأي من قبل ابن بلقين كان يتم بعد نهاية الاحداث وزوال الضغوط عليها ، أو غياب الشخصيات التي يذكرها ، فمثلاً (يتهم عبد الله قروراً اكثر من مرة بأخذ الرشاوى ، ولكنه لم يجرؤ آنذاك على الافصاح عن ذلك لأمير المسلمين خشية ان يقتص منه قرور . إلا أنه لما فرغ عبد الله من إعداد كتابه سنة ٤٨٧ / ١٠٩٨ ، كان قرور ــ فيما يبدو ــ إما أنه توفي وإما أنه فقد حظوته ، وإلا لما تجرأ المؤلف على ذكر تفاصيل المبالغ التي كان قد دفعها له أثناء حملة لييط وبعدها . ومع ذلك فإن عبد الله يحرص كل الحرص على أن لا يسيء لأمير المسلمين لما حدث ، بمبادرته إلى القول ــ بلباقة ــ إن تصرف قرور لم يكن بعلم امير المسلمين أم موافقته ، وإن أمثال قرور يفسدون على الرئيس ويبغضون إليه جماعة) [٩٤] .

كما إن تخيلاته وحديثه مع نفسه كانت تمثل هروباً واضحاً ، واستبدالاً عن المواجهة المباشرة ، لذا تكثر عبارة (وقلت ، وقلت في نفسي) بل وينقل ما يراه من دواخل غيره مثل المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين والفونسو السادس ، وكثير منها ما يتمناه لا ما هو موجود حقيقة !.

من ذلك : (وقلت : ليس في الممكن أن يتعرض أمير المسلمين أحداً من سلاطين الأندلس إلا بعد إبرامه لأمر الرومي !) [٩٥] ، كما (إن الكلام الذي ينسبه عبد الله هنا إلى الفونس ليس في الواقع سوى أمانٍ جالت في خاطر المؤلف ، والعبارة التي يعزوها لألفونس ليست سوى ما كان الأمير الزيري يجب ان يقولها الفونس لابن عمار ، وتبين القصة بكاملها الأساليب التي اتبعها ملك قشتالة مع أمراء الطوائف) [٩٦] .

ان ركون الأمير عبد الله بن بلقين إلى الحيل الدفاعية في كتابه التبيان ، امر واضح وجلي ، بل إن اللجوء إلى الكتابة كان على ما يبدو بمثابة توجيه رسالة إلى كافة ابناء الأندلس ، وللمسلمين من بعدهم ، لم يجرؤ ابن بلقين على البوح بها ، فاستتر خلف الأحرف ، يبرر مواقفه ، ويسقط الأحكام على الحوادث ، ويهرب من الماضي القريب إلى واقع ظل يتخيله ويتمناه .

ولم يكن ذلك ببعيد عن طبيعة شخصيته ، التي امتازت بالضعف ، وعدم المواجهة، وإيثار السلم ، وامتلاك ملامح الجبن ، والكآبة المتملكة من نفسه باعترافه هو ، فغدا المنصب كبيراً عليه ، بهمومه ومشاكله وفي واقع شديد الصعوبة .

لقد دون ابن بلقين التاريخ في كثير من مجرياته ، ونقل الكثير من الحقائق ، ولكنه ظل حريصاً على تضمين رواياته أفكاره ، وتبريراته لمواقفه ، مثلما إن اختياراته لبعض الأحداث بتسليط الضوء الساطع عليها ، وغيرها بتجاوزها أثار علامات الاستفهام ، لاحتمالية وجود مقصد معين ، يدور حول عدم ذكر ما يسيء لعائلته من جهة ، او يثير الأقاويل حوله من جهة ثانية .

الخاتمة

استعرضنا في الصفحات الماضية موضوع (الحيل الدفاعية لدى ابن بلقين في كتابه التبيان) ويمكننا أن نسجل في ختامه :

١. مثل كتاب التبيان وثيقة تاريخية مهمة ، وتدوين حمل طابعه الشخصي إلى حدٍ بعيد ، ومذكرات حملت الكثير من الحيل الدفاعية التي عمل ابن بلقين على تطبيقها لتحقيق أهداف عدة أبرزها تقديم تفسير مقنع للقارئ لسنوات حكمه وسياسته .

٢. طغى منهج التبرير على مضمون التبيان ، وجاء في مواطن عديدة ، حاول فيها ابن بلقين تعليل ما اتخذه من مواقف ، وتبرير ما مرت عليه من أحداث ، ولا سيما تعاونه مع الفونسو السادس ، وصراعه مع بقية زعماء الطوائف ، وعلاقته بالمرابطين بدءاً منذ أول اتصالهم بجزيرة الأندلس وحتى خلعه ونفيه إلى أغمات .

٣. حاول ابن بلقين كذلك ، استدعاء الذاكرة التاريخية الايجابية عن عائلته حيناً ، كما نوه إلى عدم رغبته البقاء ضمن اطار الماضي وحقبة حكمه في غرناطة ، وان كانت هذه الإشارات أقل مقارنة بالتي تضمنت تبريراً .

٤. ارتبطت الحيل الدفاعية بالواقع الذي يعيش من يتخذها ، وهو ما حصل لدى ابن بلقين والذي عاش واقعاً صعباً فرض عليه اتخاذ قرارات مهمة ، مثلما أن تلك الحيل جاءت متلازمة مع طبيعة شخصيته التي غلب عليها الضعف ، وعدم الجرأة ، وغلبة الكآبة والخوف عليها .

٥. لا ينكر الباحث أن ابن بلقين حمل معه مواصفات ايجابية ، مثل عدم القتل والرغبة في المسالمة ، ولكنها مع ذلك لم توجه إلى المصلحة العامة لتكون سياسة دولة يشار لها بالبنان في مرحلة تاريخية دقيقة من تاريخ الأندلس ، كما لم تلمس هذه الصفات على بناء البلد ككل

الهوامش

(١). زهران ، حامد عبد السلام ، الصحة النفسية ، ط ٤ (القاهرة : عالم الكتب ، ٢٠٠٥) ، ص٣٨

(٢). يونس ، انتصار ، السلوك الانساني ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٩٣) ، ص ٣٤٤ ــ ٣٤٥ .

(٣). عواد ، محمود ، معجم الطب النفسي والعقلي ، (عمان : دار أسامة ، ٢٠١١) ، ص٢٦٢.

(٤). الحانوتي ، سعدي موسى ، الاضطرابات العصابية ، (الرياض : مكتبة العبيكان ، ٢٠١٦) ، ص ٢١٥ .

(٥). يونس ، السلوك الانساني ، ص ٣٥١ .

(٦). زهران ، الصحة النفسية ، ص ٣٨ ؛ ويعرج زهران إلى تقسيم آخر يدور حول (حيل الدفاع السوية وغير السوية) يراجع المرجع نفسه .

(٧). الشربيني ، لطفي ، معجم مصطلحات الطب النفسي ، (الكويت : د.ت) ، ص ٤٠ بتصرف بسيط ؛ وللمزيد من التقسيمات ينظر كذلك في هذا الاطار : الحانوتي ، الاضطرابات العصابية ، ص ٢١٥ .

(٨). الحانوتي ، الاضطرابات العصابية ، ص ٢٣٠.

(٩). زهران ، الصحة النفسية ، ص ٤٤.

(١٠) . الحانوتي ، الاضطرابات العصابية ، ص ٢٢٧ .

(١١)١١. زهران ، الصحة النفسية ص٣٩ .

(١٢) . يونس ، السلوك الانساني ، ص ٣٤٧

(١٣). زهران ، الصحة النفسية ، ص ٤٠

(١٤). يونس ، السلوك الانساني ، ص ٣٤٨

(١٥) . الحانوتي ، الاضطرابات العصابية ، ص٢٢٠

(١٦). زهران ، الصحة النفسية ، ص ٣٩.

(١٧.) الحانوي ، الاضطرابات العصابية ، ص٢٣٣ .

(١٨). يونس ، السلوك الانساني ، ص ٣٤٥ ــ ٣٤٦

(١٩). زهران ، الصحة النفسية ، ص٤٣

(٢٠). يونس ، السلوك الانساني ، ص ٣٤٩

(٢١). زهران ، الصحة النفسية ، ص ٤١ ــ ٤٢

(٢٢). انتصار يوس ، السلوك الانساني ، ص ٣٤٦ ـــ ٣٤٧

(٢٣). المرجع نفسه ، ص ٣٤٦ ـــ ٣٤٧ .

(٢٤). زهران ، الصحة النفسية ، ص٤٢ ـــ ٤٣ .

(٢٥). الحانوتي ، الاضطرابات العصابية ، ص٢٢٤ .

(٢٦). المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ .

(٢٧). الحانوتي ، الاضطرابات العصابية ، ص ٢١٩ ؛ وينظر كذلك عن النكوص انتصار يوس ، السلوك الانساني ، ص ٣٤٨ ؛ زهران ، الصحة النفسية ، ص ٤١ .

(٢٨) ينظر عن هذه الحيل الدفاعية : انتصار يوس ، السلوك الانساني ، ص ٣٤٧ ، ص ٣٤٩ ــ ٣٥٠ ؛ زهران ، الصحة النفسية ، ٣٩ ــ ٤٥ ؛ عواد ، معجم الطب النفسي والعقلي ، ص ٢٦٢ .

(٢٩). عن ترجمة ابن بلقين يراجع : ابن أبي زرع ، علي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، (الرباط : دار المنصور للطباعة ، ١٩٧٢) ، ص ١٤٤ ــ ١٥١ ؛ ابن الخطيب ، لسان الدين (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، اعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام (الجزء الخاص بالأندلس)، تحقيق ليفي بروفنسال، ط ٢، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦ . ، ص ٢٣٤ ،٢٣٣ ؛

(٣٠). بو الصوف ، فضيل ، العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر الطوائف ق ٥ هـ / ١١ م ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ،جامعة قسنطية ، كلية منتوري ، ٢٠١٠ ، ص ٩٠ وما بعدها ؛ (كان ألفونسو السادس يراقب تطور الأحداث بين غرناطة واشبيلية بعين الغبطة والسرور، وينتظر الفرصة المناسبة للتدخل، ويحاول الاستفادة من هذا الوضع الجديد ، ولا نعلم على وجه الدقة من الذي بادر بالاتصال بالآخر، فالأمير عبد الله الزيري يذكر أنّ ألفونس هو الذي بادره بالاتصال يطلب منه الجزية ، لكن إحدى الدراسات الحديثة تؤكّد أنّ الأمير عبد الله اتصل أولا بالملك النصراني ألفونس يطلب مساعدته في حربه ضد ابن عباد ، بعد أن رأى وصول النفوذ النصراني إلى جنوب غرب الأندلس وتحديدا إلى اشبيلية. ومن الصعب الأخذ برواية هذا الأمير كما هي دون مناقشتها، والتسليم بأنّ ألفونس قد وجه مبعوثه لقبض الجزية دون سابق اتصال بين الرجلين. وعلى كلّ حال ليس غريبا أن نلحظ من الأمير عبد الله هذا الموقف، فكثيرا ما كان يجتهد في مذكراته ليبرر قراراته وتصرفاته) ، وقد تعهد ابن بلقين أولاً بدفع مبلغ عشرين ألف دينار سنوياً ، ثم تغيرت المبالغ المدفوعة تباعاً كما سينّص ابن بلقين نفسه فيما بعد ، ينظر المرجع نفسه ، ص ٩٦ ؛ السامرائي ، خليل ابراهيم

وآخرون ، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، (بيروت : دار الكتاب الجديد ، ٢٠٠٠) ، ص ٢٣٧ .

(٣١). ابن الخطيب ، لسان الدين (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، مراجعة بوزياني الدراجي ، (الجزائر : دار الأمل ، د.ت) ، جـ ٤ ، ص ٢٦٩ ــ ٢٧٣ ؛ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٣٣ ــ ٢٣٦ ؛ يراجع : زيان ، علي ، المعرفة التاريخية في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، ٢٠١٠ ــ ٢٠١١ ، ص ١٢٨ ــ ١٣١.

(٣٢). عن أوليتهم يراجع : ابن عذاري ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢ هـ) ، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، تحقيق بشار عواد معروف ، محمود بشار عواد معروف ، (تونس : دار الغرب الإسلامي ، ٢٠١٣) ، جـ ٢ ، ص ٤٨٦ وما بعدها .

(٣٣). زيان ، المعرفة التاريخية ، ص ١٢٩ .

(٣٤). ابن بلقين ، عبد الله ، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان ، تحقيق ليفي بروفنسال ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٥) ص ٨ ــ ٩

(٣٥). ابن بلقين ، عبد الله ، كتاب التبيان ، تحقيق : امين توفيق الطيبي ، (منشورات عكاظ : ١٩٩٥) ، من المقدمة ، ص ١٩ ؛ ويورد الطيبي وقفات مهمة من الكتاب تاريخياً وحضارياً ، ينظر ، المصدر نفسه ، ص ١٩ ــ ٢١ .

(٣٦). التويجري ، السمات الشخصية ، ص ٨٣.

(٣٧). بن عبود ، امحمد ، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، (تطوان : مطبعة النور ، ١٩٨٧) ، ص ٥٩ ؛ ويحدث بن عبود مقارنة بين اسهام ابن بلقين من جهة ، وابن حيان القرطبي مؤرخ الأندلس الكبير من جهة أخرى ، ويخلص إلى إنه (تختلف القيمة التاريخية لكتاب التبيان لعبد الله بن بلقين عن قيمة المتين لابن حيان من عدة نواح ، إلا أن هذا لا يقلل في شيء من أهميته . فعلى سبيل المثال ... ومع افتقار عبد الله لخصائص ابن حيان كمؤرخ وعلى رأسها منهجه التاريخي القويم امتاز حاكم غرناطة بصدق كبير في روايته للعلاقات بين ملوك الطوائف ، ونظراُ لكتابة مذكرات عبد الله وهو في المنفى في المغرب إثر احتلال يوسف بن تاشفين للأندلس ، فقد وصف علاقاته بملوك الطوائف بحرية مطلقة ، مع أنه كان حذراً يزن كل كلمة تتعلق بيوسف بن تاشفين ... وفي الختام ، لا يمكن أن نشك في القيمة التوثيقية العظمى لمذكرات عبد الله لأنه كان شخصية معاصرة للعهد الذي أرخ له ، ولأنه لم

يتأثر بمعظم الأحداث التي تطرق لها عندما كتب عنها في مذكراته) يراجع المرجع نفسه ، ص ٥٧ ــ ٥٨ .

(٣٨). حول جوانب الذاتية والتجرد والموضوعية في الكتاب ، ينظر بن عبود ، جوانب من الواقع ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٥٤ ، ص ٢٥٥ .

(٣٩). كانت الصورة السلبية هي الغالبة على زعماء الطوائف ، وعلى الرغم من بروز بعض المبادرات لإعادة الوحدة إلى بلاد الأندلس ، لكن المدونات الأندلسية تثبت الصورة القاتمة عنهم ، ومنها هذا النص المهم : (من ملوك الطوائف ، مثل ابن باديس بن حبوس بغرناطة ... كلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزي إلى أن ظهر بالعدوة ملك المرابطين ، واستفحل أمر يوسف بن تاشفين وتعلقت آمال المسلمين في الأندلس بإعانته) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، (بيروت : دار الفكر ، ٢٠٠١) ، جـ ٤ ، ص ٢٠٣ ؛ وللمقارنة يراجع : الحجي ، عبد الرحمن علي ، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، ط٢ ، (بيروت ، دمشق : دار اقلم ، ١٩٨١) ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٥٢ .

(٤٠). التبيان ، الطيبي ، ص ٥٥

(٤١). من مقدمة بروفنسال لكتاب التبيان ، ص ٨ ؛ وينظر كذلك ، التويجري ، نورة بنت محمد عبد العزيز ، السمات الشخصية للأمير عبد الله بن بلقين (٤٦٩ ـــ ٤٨٣ هـ / ١٠٧٧ ـــ ١٠٩٠ م) من خلال كتابه التبيان ، مجلة جامعة الملك سعود ، م ١٢ ، الآداب ١ ، ٢٠٠٠ ، ص ٨٦ ؛ وعن بعض النماذج ينظر : التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥ .

(٤٢). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص

(٤٣). بقي ابن بلقين يكرر منجز المصالحة مع المتعمد كثيراً ولا نجد له آخر شبيهاً ، ولذلك دلالة متعلقة بطبيعته سنوردها لاحقاً .

(٤٤). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص١٠٩ ــ ١١٠

(٤٥). التبيان / الطيبي / ص ١١٢

(٤٦). اعمال الاعلام ، ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥ .

(٤٧). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ٣٥ ــ ٣٦ .

(٤٨). المصدر نفسه ، ص٥٨

(٤٩). المصدر نفسه ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ .

(٥٠). التبيان ، الطيبي ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣

(٥١). المصدر نفسه ، ٩٧ .

(٥٢). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ٩٨ ـــ ١٠٢ .

(٥٣). يصف عبد الواحد المراكشي المستوى الذي غدا عليه ملوك الطوائف عند الفونسو السادس بالقول : (أما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة ، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم) المعجب ، ص ١٩٣ .

(٥٤). (ولما حصّل الطاغية الفنس بطليطلة شمخ بأنفه ، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالها) أبن الكردبوس ،أبو مروان عبد الملك التوزري (توفي في العقد الأول من القرن السابع الهجري) ، الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، تحقيق صالح بن عبد الله الغامدي ، (المدينة المنورة : ٢٠٠٨) ، جـ ٢ ، ص ١٢٤٧ ، وعن تأثير سقوط طليطلة يراجع المصدر نفسه ، ص ١٢٤٨ ــ ١٢٥١ .

(٥٥). ثمة نص مهم يشير إلى هذا الجانب ، وهو ما أورده ابن الكردبوس بالقول : فخرج المسلمون من جميع الأقطار حين تملكها العدو ، ولم يكن لهم قرار ، ولا هدو ، ولا طمع في التخلص من يد اللعين ، سوى أنباء طرأت عليهم من قبل المرابطين ، وأنهم قد ملكوا مغرب العدوة ، وطردوا عنه الزناتيين ، فكأنهم تأنسوا بأبنائهم ، ورجوا الفرج من تلقائهم) الاكتفاء ، جـ ٢ ص ١٢٤٤.

(٥٦). تشير المصادر إلى استجابة عبد الله بن بلقين لنداء ابن تاشفين في الزلاقة ، (وقد كان يوسف بن تاشفين كتب إلى سائر أمراء الأندلس يستنفرهم للجهاد ، ويستدعيهم للحاق بمحلته ، فلحق به الأمير المظفر أبو محمد عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس ، صاحب غرناطة وأعمالها ، وأخوه المستنصر تميم صاحب مالقة ، وراجع صاحب المرية المعتصم بالله أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح ، يعتذر بسبب العدو الملاحق له بحصن لبيط من أعمال لورقة) مجهول ، مؤلف ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، (الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة ، ١٩٧٩) ص ٥٢ ؛ وكذلك المراكشي ،أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ) ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، (القاهرة : د. ت) ص ٩٢ ؛ ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ، ص ١٤٦ ؛ ولم يختلف الأمر في حصار لبيط ، الحلل الموشية ، ص ٦٨ ــ ٦٩ ؛ وللمقارنة : المقري ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني (ت ١٠٤١هـ) نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، (بيروت : دار صادر ، ١٩٨٨) ، جـ ٤ ، ص ٣٥٤ ــ ٣٧٣ ؛ ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، جـ ٢ ، ص ١٢٥٣ ــ ١٢٦٥ . ولعل في هذه الاستجابة تعبير عن واقع الأندلس وقتها والذي بات ينشد الخلاص ويترقب بخوف كبير تقدم الإسبان على حساب الأراضي الأندلسية ، ولا سيما بعد سقوط طليطلة في سنة ٤٧٨ هـ بيد الفونسو السادس والذي كان بمثابة ناقوس الخطر لما هو قادم ، مع عدم انكار أن هذه المشاعر كانت لدى أغلب زعماء الطوائف مرحلية ، وأن العودة للسلوك السلبي لم يتأخر ، مما دفع ابن تاشفين لخطوته بخلعهم وضم الأندلس للسلطة المرابطية ، عن هذا الموضوع ينظر : الحجي ، عبد الرحمن علي ، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، ط٢ ، (بيروت ، دمشق : دار القلم ، ١٩٨١) ، ص ٤٢١ ــ ٤٢٣ .

(٥٧). الاكتفاء ، جـ ٢ ، ص ١٢٥١ ــ ١٢٥٢

(٥٨). يقول ابن الكردبوس عن أثر معركة الزلاقة : (وتنفس بها مخنق الجزيرة] يقصد الأندلس [.وثبتت بسببها كثير من البلاد) الاكتفاء ، جـ ٢ ، ص ١٢٦٥ ..

(٥٩). أرسل الفونسو السادس ــ عقب استيلائه على طليطلة ــ قوات للإغارة على بعض مناطق شرق الأندلس . ثم ابتنى قرب مرسية حصناً ضخماً ليكون قاعدة للإغارة على تلك المناطق ، في مكان إسمه لبيط . شحنه بالمقاتلة ، حتى بلغت حاميته ثلاثة عشر ألف مقاتل ، فيهم ألف فارس . وجد المعتمد بن عباد أنه لا بد من الاستعانة بالمرابطين مرة أخرى لإنقاذ شرقي الأندلس من هذا العيث . فعبر بنفسه إلى المغرب والتقى بأمير المسلمين وعرض عليه الأمر ، فوعده يوسف بن تاشفين خيراً ووفى يوسف بوعده ، فجاز إلى الأندلس ــ جوازه الثاني ــ سنة ٤٨١ هـ ، وتوجه بقوته إلى حصن لبيط ولحق به عدد من ملوك الطوائف بقواتهم وضربوا الحصار حول الحصن ، لكن لم يتمكنوا من فتحه . ثم آثر يوسف الانسحاب ، حين علم مجيء الفونسو بجيشه . وفضل هذا الأخير إخلاء الحصن بعد تهديمه وذلك سنة ٤٨٢ هـ . وعاد يوسف إلى المغرب وترك في الأندلس حامية ، كما فعل بعد الزلاقة ، يراجع : الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص ٢٤٤ ؛ ويصف صاحب الحلل الموشية مجريات الحصار بقوله : (واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمادى القتال على الحصن ليلاً ونهاراً مدة شهر ، وكل أمير من امراء الأندلس ، يقاتل في يوم ، بخيله ورجله ، مداولة بينهم ، واجتمع المعتمد بن عباد ، ويوسف بن تاشفين ، وظهر لهما من حصانته ومنعته ، واستعصامه ما آيسهم عنه ، وأنه لو كان دون سور لكان شفا جرفه عاصماً لمن فيه ، وأنه لا يتأتي لهم أخذه إلا بالمطاولة ، وقطع مادة القوت عنهم ... وفي أثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم ، فأخذ في الحشد ، ويمم الحصن

في أمم لا تحصى ، فاقتضى رأي يوسف بن تاشفين التوسعة على الحصن والتأهب للقائه ... وظهر له أن الأذفنش إذا وصل ، فغايته تخليص قومه ، وإخلاء الحصن ، ويزول ضرره ، ورأي أن الصواب اخلاء الطريق له . ولما وصله اللعين وجد قوماً جياعاً ، لا يقدرون على إمساك الحصن ، فأحرقه ، وأخرج من كان فيه من قومه ، وجرد يوسف بن تاشفين من عسكره جيشاً ينيف على أربعة آلاف فارس ، وبعثه إلى بلنسية .. وأنصرف من هناك إلى العدوة ، فتحرك الجميع بحركته وعادوا إلى بلادهم) ، ص ٦٩ ــ ٧٠

(٦٠). يعلق الطيبي على هذا القول : (من الواضح أن عبد الله يحاول تبرير عمله بقوله إن الأميرين من بني هود دفعا لألفونس الجزية المستحقة عليهما عن السنوات السابقة . ومن الغريب أن المصادر الإسلامية لا تلصق هذه التهمة بالمستعين الثاني ، الذي يبدو أنه كان ــ حتى استشهاده محارباً للأرغونيين سنة ٥٠٣ / ١١١٠ ــ على صلات ودية بالمرابطين) انظر الهامش ٢٣٨ .

(٦١). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ١٣٧ ــ ١٣٨ .

(٦٢). بقيت النظرة للمرابطين ليس على أنه الظهير المسلم المعاون وإنما الكيان السياسي المنافس ، وفيما عدا الأجواء الإيجابية التي سادت وقت الزلاقة ، ظلت هذه النظرة تحكم كافة زعماء الطوائف وابن بلقين منهم ، إذ يقول ابن بلقين : (وأرسل [أمير المسلمين] عند حلوله باشبيلية ، عن جميع الرؤوساء ، فأما ابن صمادح ، فأبى عليه وبقى متربصاً ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم ، واعتذر بكبر السن مع الضعف ، وأرسل أبنه معتذراً . وبادرنا نحن إلى الخروج ، وسررنا بذلك ، وأعددنا ما استطعنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا ، وقدمنا الهدية إلى أمير المسلمين ، وأمرنا بضرب الطبل وما يستعد به للفرح ، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة . وظننا ان إقباله إلى الأندلس منة من الله عظمت لدينا ، لا سيما خاصة من أجل القرابة ، وللذي شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طلب الآخرة ، وحكمهم بالحق ، فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عام : فمن عاش منّا كان عزيزاً ، تحت ستر وحماية ، ومن مات كان شهيداً . والعجب في تلك السفرة من حسن النيات ، وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك . ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس بجريشة ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً على أموالنا . ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلاً بعسكره : كل يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ، ووطن على الموت نفسه) التبيان ، الطيبي ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤ ؛ ويقارن بالمصدر ذاته ص ١٢٢ .؛ ويثير الطيبي فرضية أن هذا الايجاز الذي أتى به ابن بلقين مرده إلى إن الزلاقة فعلاً لم تكن موقعة ضخمة أو حاسمة ، وأن مدونات

المؤرخين الآخرين كانت تهول من شانها ، وهي رواية واقعية أكثر من غيرها ، والحقيقة إن ثمة تساؤل يثار هنا ، وهو هل إن شرح الزلاقة بالاختصار كان فعلاً دليلا على انها لم تكن كبيرة حاسمة ن أم إن اختزالها بهذه الصورة سببه نفسي لأن ابن تاشفين كان سبباً في إزالة ملكه ، عن هذه المناقشات يراجع التبيان ، الطيبي ، ص ٣٤ من المقدمة ؛ و ص ١٢٤ ــ ١٢٥ ؛ وللمقارنة حول دور زعماء الطوائف وقت الزلاقة ، ثمة نص جدير بالاهتمام ، يقول فيه ابن أبي زرع : (ولم يكن لرؤساء الأندلس الذين شهدوا الزلاقة في هذا اليوم أمر يشكر ، فيقيد عنهم ويؤثر ، إلا ابن عباد وطائفة من جيشه ، فإنه ثبت وأبلا بلاءً حسناً ، وجرح ست جراحات) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ، ص ١٥١ ، فهل يمنحنا هذا الضوء على سبب ما انتبه له الطيبي ؟ ربما ؛ وللمزيد من المعلومات عن أجواء موقعة الزلاقة ، ينظر : المراكشي ، المعجب ، ص ١٩٣ ــ ١٩٦ .

(٦٣). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ١٣٨ ــ ١٣٩

(٦٤). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ .

(٦٥). يقدم ابن الكردبوس رواية مهمة عن خلع ملوك الطوائف ، فيقول : (فحسدهم [أي المرابطين] ابن عباد وغيره من الرؤساء بقلة إنصافهم ، وكثرة بغيهم واختلافهم ، فاعتقدوا بهم المكر ، وأضمروا لهم النكث والغدر ، وخاطبوا الفنش سراً أن يسعوا على المربطين سراً وجهراً ، ويصيروا له المرابطين طعمه على ان يتركهم على ما بأيديهم عملاً ، ويجبون له من الرعية أموالاً . فوقع الاتفاق على ذلك ، وسرعوا في تدبير الأمر من هنالك) الاكتفاء ، جـ ٢ ، ص ١٢٧٨ ؛ كما ينوه إلى ادراك ابن تاشفين لخطط ملوك الطوائف : (وسرّ القوم في الغدر به ، وعنده واضح ، ومكرهم في الإيقاع به لائح ، لكنه جرى على مرادهم ، كأنه لا يعلم حقيقة اعتقادهم ، وإنما كان غرضه أن يتبين للمسلمين مذهبهم ، وسعيهم الذميم وطلبهم ، كي نقوم له الحجة عليهم ، عند امتداد يده في عقابه إليهم) المصدر نفسه ، ص ١٢٨٠ ؛ وحول خلع ملوك الطوائف ، يراجع المصدر نفسه ، ص ١٢٨٠ ـــ ١٢٨٤ ؛ وللمقارنة ينظر : النباهي ، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (ت بعد ٧٩٢ هـ) ، كتاب قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ط ٥ ، (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٨٣) ، ص ٩٧.

(٦٦). التبيان ، تحقيق الطيبي ،ص ١٤٩ .

(٦٧). المصدر نفسه ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ ؛ ويوثق صاحب الحلل الموشية أجواء خلع عبد الله بن بلقين بالقول : (كان جوازه الثالث] أي يوسف بن تاشفين [في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة

ــ سببه : أنه لما كان على حصن لييط نقل إليه كلام عن ملوك الأندلس ، أحفظه وأوغر صدره عليهم ، وهو الذي أزعجه إلى العدوة . ولما تبين لهم تغيره عليهم ، وإعراضه عنهم ، نظر كل واحد منهم لنفسه بغاية عزمه ، فأول من جهر بذلك وتظاهر به ، وجد فيه المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس ، واتصلت انباؤه بيوسف بن تاشفين ، فاشتد غضبه وزاد حرجه عليه ... وتوالت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده ، فاستنزل من مالقة أخاه المستنصر تميم بن بلقين ، وتوجه إلى غرناطة ، فلقيه المظفر عبد الله بن بلقين خارج الحضرة ، فسلم عليه ، وترجل إليه ، ودخل معه البلد ، وسلم إليه الأمر ، وقام ينظر في توطيد البلد ، وتمهيد الأمور ، ثم احتمله هو وأخاه المستنصر تميماً إلى العدوة ، وأسكنهما بأغمات ، وقد استوفى الكلام في هذا الأمير عبد الله بن بلقين في الكتاب الذي ألفه في دولة قومه . وكان المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس ، قد قدما عليه بغرناطة ، يهنئانه بما تهيأ له من ملك غرناطة ومالقة ، فلم يقبل عليهما ، وأعرض عنهما ، وانصرفا عنه إلى بلادهما ، وأدرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وقال لحليفه المتوكل بن الأفطس : والله لا بد أن يسقينا من الكأس التي سقى بها عبد الله بن بلقين) ص ٧١ ــ ٧٢ ؛ ويبدو واضحاً النظرة السلبية من قبل زعماء الطوائف ليوسف بن تاشفين والذي أخذ ــ ربما ــ صفة (المنافس) السياسي أكثر من (المعين والمنجد) المسلم .

(٦٨). مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧١ ؛ وتشير الدراسات الحديثة إلى أن قرار يوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف يعود إلى عدة امور منها : الخلافات الشديدة والمنازعات بين ملوك الطوائف ، وفشل جهود إزالتها ، والموقف الحرج الذي أحاط بالقوات المرابطية الموجودة في بلد الأندلس ، حيث قطع ملوك الطوائف الميرة والتموين عن هذه القوات ، فأحرج مركزها ، فساء هذا الأمر يوسف بن تاشفين ، أن المرابطين قدموا تضحيات كبيرة في سبيل إنقاذ بلد الأندلس من الخطر الإسباني في معارك الزلاقة وحصن لييط ، وقد اعتبر ملوك الطوائف هذه التضحيات أموراً فرضتها الأخوة الإسلامية ، وبذلك عاد هؤلاء الملوك إلى منازعاتهم ، كما عادوا إلى التعاون مع ملوك الاسبان والارتماء في احضانه ، بل تطور الأمر إلى الكيد لقوات المرابطين الموجودة في بلد الأندلس ، والحصول فتاوى فقهاء المشرق الإسلامي أمثال الغزالي والطرطوشي ، وتأييد فقهاء الأندلس وعامة الناس الذين أكثروا من شكواهم إليه بعد العبور الثاني ، وكشفوا النقاب عن سوء ومكر ملوك الطوائف ، وحرضوه على خلعهم وكان على رأس هؤلاء الفقهاء (أبو جعفر بن القليعي) قاضي قرطبة . عن هذا الموضوع ينظر : السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب ، ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .

(٦٩). اعمال الأعلام ، ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ ؛ وحول ظروف خلعه ينظر كذلك : ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٤٠ ؛ ويضعنا ابن الكردبوس في أجواء ما كان يصل إلى ابن تاشفين من معلومات تخص زعماء الطوائف وعودتهم إلى سلوكهم السلبي ، ولا سيما من قبل الفقهاء ، فيقول في نص مهم : (اجتمع معه فقهاء إشبيلية وقضاتها ، وأعيانها وسراتها ، وقالوا له : هؤلاء الرؤساء لا تحل طاعتهم ، ولا تجوز إمارتهم ، لأنهم فساق ظلمة فجّار ، فأخلعهم عنّا وأرحنا ، فقال لهم : كيف يجوز لي ذلك وقد عاهدتهم وارتبطت معهم على إبقائهم ، فقالوا له : إن كانوا عاهدوك فها هم قد ناقضوك ، وأرسلوا إلى الطاغية ألفنش أن يكونوا معه عليك ، حتى يوقعك بين يديه ، ويعود أمرهم إليه ، فبادرهم بخلعهم بجمعهم ، ونحن بين يدي الله محاسبون ، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون ، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم ، أعادوا بقية بلاد الإسلام إلى الروم ، وكنت انت المحاسب بين يدي الله تعالى محاسبة المطيع لعبده المظلوم ، فاتق الله في المسلمين . فعند ذلك أزمع على خلعهم أجمعين) الاكتفاء ، جـ ٢ ، ص ١٢٨٢ ــ ١٢٨٣ .

(٧٠). الأنيس المطرب ، ص ١٥٣ ــ ١٥٤ ؛ الأبيات للأديب أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري المعروف بالسميسر (ت ٤٨٠هـ) ، وقد أوردت المصادر أنه ذكرها للمعتصم بن صمادح لما سأله عما قال في ابن بلقين ، ومناسبتها كما أشار هو : (لما رأيته مشغوفاً بتشييد قلعته التي يتحصن فيها بغرناطة) وقد أورد ابن بسام والمقري البيت الأول فقط ، يراجع ابن بسام الشنتريني ، ابو الحسن علي ، (ت ٥٤٢ هـ) ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، (بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٩٧) ، ق ١ م ٢ ، ص ٨٨٧ ؛ وكذلك : المقري ، نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٤١٢ ؛ وللمقارنة : العامودي ، محمود محمد ، شِعر السميسرِ أبي القاسم خلف بن فرج الإلبيري ٤٨٠هـ ، جمع ودراسة ، (مجلة الجامعة الإسلامية ، ٢٠٠١) م ٩ ، ع ٢ ، ص ٤٨٠ ــ ٤٨١ .

(٧١). ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٣٥.

(٧٢). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ١٣٥ ــ ١٣٧

(٧٣). فطن الأستاذ الطيبي إلى هذه الناحية فوثقها في هامش ٣٧٤ ، ص ٢٤٩ من التبيان .

(٧٤). التبيان ، تحقيق ، الطيبي ، ص ١٥٥ ــ ١٥٦

(٧٥). المصدر نفسه ، ص ١٦٠ ـــ ١٦٣ ؛ تتساءل الباحثة نورة التويجري عن هذا الجانب وتقول : (هل القناعة والزهد في الثروة فلسفة ثابتة في حياة الأمير عبد الله ، وهل هي مبدأ ثابت

عنده ، أم أنها فلسفة أملتها عليه الظروف السياسية الحرجة التي مر بها ، وذلك عندما عزل عن ملكه ونفي إلى مدينة اغمات جنوب المغرب ؟ إننا لو تتبعنا حياته من خلال ما ذكره في كتابه التبيان لوجدنا ان ما يدعيه من القناعة والزهد ليست مبدأ ثابتاً لديه عمل به في حياته الخاصة عندما كان في اوج عزنه في ملكه ... ما ادعاه من الزهد والقناعة في الدنيا فقد كان ذلك نتيجة لتلك الظروف السياسية القاسية التي مر بها بدليل رده على من اتهمه بالتبذير فهذا ينفي عنه صفة الزهد أثناء حكمه ، وأن ما ذكره عن الزهد والقناعة عندما تحدث عن النفس البشرية ما هو إلا فلسفة املتها عليه الظروف السياسية التي مرّ بها) ينظر ، السمات الشخصية ، ص ١٣٦ ـــ ١٣٧

(٧٦). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ؛ وتراجع كذلك ملاحظة الطيبي ، هامش ٤٥٠ ، ص ٢٥٧ من التبيان ؛ وكذلك ، التويجري ، السمات الشخصية ، ص ١٢٤ .

(٧٧). التبيان ، تحقيق الطيبي ، ص ١٩٣ ــ ١٩٤ ــ ١٩٥

(٧٨). المصدر نفسه ص ١٧٥

(٧٩). المصدر نفسه ، ص ١٨٣

(٨٠). عن هذه الانتقادات ، يراجع ، التبيان ، مقدمة المحقق الطيبي ، ص ٣٥ ــ ٣٦ ؛ ص٧٢ هامش ١٢٦ ؛ ص ٢١٢ ، هامش (١٢٧).

(٨١). ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ م ٢ ، ص٥٧٦ ، ابن الخطيب ، أعمال ٢٢٧ ؛ (ولا يقل عن ذلك مدعاة للدهشة أن نجد المؤلف يغفل ذكر وفاة الخليفة الشرعي هشام المؤيد الذي يحتمل أن يكون قد لقي مصرعه بعيد استرداد سليمان وأنصاره من البربر مدينة قرطبة في ٢٧ شوال ٤٠٣ هـــ كما ان الأمير عبد الله لا يذكر شيئاً عن تخلي صنهاجة عن سليمان الأموي ونقل ولائهم إلى علي بن حمود ثم مساندتهم لفريق من بني حمود ضد فريق آخر ، الأمر الذي يدل على أنهم لم يكونوا مخلصين في مساندتهم للحموديين ، وأن مصلحتهم كانت تكمن فقط في توطيد أقدامهم في الأراضي التي استحوذوا عليها) من مقدمة الطيبي للتبيان ، ص ٢٨ ؛ وتراجع ص ٣٢ كذلك .

(٨٢). من مقدمة الطيبي للتبيان ، ص ٣٢ .

(٨٣). التويجري ، السمات الشخصية ، ص ٨٤ .

(٨٤). ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٣٤

(٨٥). الاحاطة ، الطبعة الجديدة ، القسم الرابع ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ ؛ وكذلك ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٣٥.

(٨٦). التبيان ، الطيبي ، ص ٩٩

(٨٧). عن هذا الموضوع والآراء فيه ينظر : الطيبي ، من مقدمة التبيان ، ص ٤٠ ؛ عنان، محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس ، ط ٤ ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٩٧) ، دول الطوائف ، ص ١٤٦ ؛ ؛ العلاقات السياسية ص ١٥٥ ــ ١٥٦ ؛ ويصف أمحمد بن عبود استيلاء المرابطين على غرناطة بانه حرر ابن بلقين من (ثقل كان يفوق كل طاقته) جوانب من الواقع الأندلسي ، ص ٢٥٩ .

(٨٨). التبيان ، تح الطيبي ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥

(٨٩). التبيان الطيبي هامش ٤٢٠ ، ص ٢٥٤ ؛ هامش ٤٢٠ ، ص ٢٥٤ ؛ هامش ٥٨٢ ، ص ٢٧١ .

(٩٠). التبيان ، الطيبي ، ص ١٦٧

(٩١). التبيان ، الطيبي ، ص ١٣١ .

(٩٢). التبيان ، الطيبي ،ص ١٧٣.

(٩٣). المصدر نفسه ، ص ١٦٤

(٩٤). المصدر نفسه ، هامش ٣٥٦ ، ص ٢٤٧

(٩٥). المصدر نفسه ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧

(٩٦). المصدر نفسه ، هامش ٢١٨ ، ص ٢٢٨ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأولية

- **ابن بسام الشنتريني ، ابو الحسن علي ، (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م)**

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٩٧.

- **ابن بلقين ، عبد الله**

ـــــ كتاب التبيان ، تحقيق : امين توفيق الطيبي ، منشورات عكاظ : ١٩٩٥ .

ـــــ مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٥ .

- **ابن الخطيب ، لسان الدين (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م)**

ـــــ الاحاطة في أخبار غرناطة ، مراجعة بوزياني الدراجي ، الجزائر ، دار الأمل ، د.ت.

ـــــ اعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام (الجزء الخاص بالأندلس)، تحقيق ليفي بروفنسال، ط ٢، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦ .

- **ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م)**

العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، بيروت ، دار الفكر ، ٢٠٠٠.

- **ابن أبي زرع ، علي**

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، دار المنصور للطباعة ، ١٩٧٢ .

- **ابن عذاري ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢ هـ)**

البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، تحقيق بشار عواد معروف ، محمود بشار عواد معروف ، تونس ، دار الغرب الإسلامي ، ٢٠١٣ .

- **أبن الكردبوس ،أبو مروان عبد الملك التوزري (توفي في العقد الأول من القرن السابع الهجري)**

الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، تحقيق صالح بن عبد الله الغامدي ، المدينة المنورة ، ٢٠٠٨ .

- **مجهول ، مؤلف**

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ، دار الرشاد الحديثة ، ١٩٧٩ .

- **المراكشي ،أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠م)**

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، د. ت .

- **المقري ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م)**

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٨٨.

- **النباهي ، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (ت بعد ٧٩٢ هـ)**

كتاب قضاة الأندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ط ٥ ، بيروت ، دار احياء التراث العربي ، ١٩٨٣ .

***

ثانياً : المراجع الثانوية

- **بن عبود ، امحمد**

جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، تطوان ، مطبعة النور ، ١٩٨٧ .

- **بيضون ، ابراهيم**

الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢ ــ ٤٢٢ هــ ، ط ٣ ، بيروت ، دار النهضة ، ١٩٨٦ .

- **الحانوتي ، سعدي موسى**

الاضطرابات العصابية ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ٢٠١٦ .

- **الحجي ، عبد الرحمن علي :**

التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة ، ط ٢ ، دمشق ، بيروت : دار القلم ، ١٩٨١.

- **زهران ، حامد عبد السلام**

الصحة النفسية ، ط ٤ ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥ .

- **السامرائي ، خليل ابراهيم وآخرون**

تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ٢٠٠٠ .

- **الشربيني ، لطفي**

معجم مصطلحات الطب النفسي ، الكويت : د.ت

- **عواد ، محمود**

معجم الطب النفسي والعقلي ، عمان ، دار أسامة ، ٢٠١١ .

- **عنان، محمد عبد الله**

دولة الإسلام في الأندلس ، ط ٤ ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٩٧ .

- **يونس ، انتصار**

السلوك الانساني ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٣ .

ثالثاً : الدوريات

- **التويجري ، نورة بنت محمد عبد العزيز**

السمات الشخصية للأمير عبد الله بن بلقين (٤٦٩ ـــ ٤٨٣ هـ / ١٠٧٧ ـــ ١٠٩٠ م) من خلال كتابه التبيان ، مجلة جامعة الملك سعود ، م ١٢ ، الآداب ١ ، ٢٠٠٠ .

- **العامودي ، محمود محمد**

شِعر السميسرِ أبي القاسم خلف بن فرج الإلبيري ٤٨٠هـ ، جمع ودراسة ، مجلة الجامعة الإسلامية ، ٢٠٠١ م ٩ ، ع ٢ .

رابعاً : الرسائل والأطاريح

- **بو الصوف ، فضيل**

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر الطوائف ق ٥ هـ / ١١ م ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ،جامعة قسنطية ، كلية منتوري ، ٢٠١٠ ــ ٢٠١١ .

- **زيان ، علي**

المعرفة التاريخية في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، ٢٠١٠ ــ ٢٠١١ .